

1319
SIA

العبرات

بقلم

مصطفى لطفي المنفلوطي

وهو مجموع روايات قصيرة محزنة بعضها موضوع وبعضها مترجم

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

أول مارس سنة ١٩٢٠

كل نسخة غير موقع عليها بتوقيع المؤلف تعد مسروقة

بطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي — بمصر

المطبعة الرحمانية

الى فراشه وسقطت به في مكانه ، فأرمت^(١) مكانى حتى رفع رأسه
فاذا عيناه مخضلتان من البكاء ، واذا صفحة دفتره التى كان مكباً
عليها قد جرى دمه فوقها فحاً من كلماتها ما محاً ومشى ببعض
سطورها الى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه
ورجع الى شأنه الذى كان فيه

فأحزنتنى أن أرى فى ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى
البائس المسكين منفرداً بنفسه فى غرفة عارية باردة لا يتقى فيها
عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو همّاً من هموم الحياة أو رزاً من
أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يحمد
بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقات لا بد أن يكون وراء هذا
المنظر الضارع^(٢) الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين
أضلاعه ذوباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخبء المقوّض ، فلم أزل
واقفاً فى مكانى لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق
مجلسه وأوى الى فراشه ، فانصرفت الى مخدئ وقد مضى الليل
إلا أقله ولم يبق من سواده فى صفحة هذا الوجود إلا بقايا
أسطر يوشك أن تمتد اليها لسان الصباح فيأتى غايها

(١) راء مكانه وال عما يواريه

(٢) الضارع الضرب الخفف

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إِمَّا بأكيا ، أو مطرقا ، أو ضاربا برأسه على صدره ، أو منطويا على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الشكلى ، أو هائما في غرفته بذرع أرضها ، ويطوف بأركانها ، حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسیه بأكيا منتحبا ، فأتوجع له وأبكي لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخله الصديق لصديقه وأستبثه^(١) ذات نفسه وأشركه في همه لولا أنني كرهت أن أجاء بما لا يحب وأن أهجم منه على سرّ ربما كان يؤثر الأبقاء عليه في صدره وأن يكاتمه الناس جميعا ، حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنه ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعا وخيل إلىّ وهي صادرة من قرارة نفسه كأننى أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بدّ لي من المصير إليه ، فتقدمت إلىّ خادمي^(٢) أن يتقدمنى بمصباح حتى بلغت منزله ووقفت على باب غرفته فأدركنى من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على

(١) استبثه السر طلب إليه أن يته الم

(٢) عدتم الى فلان بكدا أمره به

باب قبر يحاول أن يهبط إليه ليودع ساكنه الوداع الأخير ،
ثم دخلت ففتحت عينيه عند ما أحس بي وكأنما كان ذاهلاً أو
مستغرقاً فادهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً
لا يعرفه ، فلبث شاخصاً إلى هنيهة لا ينطق ولا يطرّف ^(١)
فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه وقلت أنا جارك النازل في
هذا المنزل وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً وعلمت
أنك وحدك في هذه الغرفة فعزاني أمرك فجئتك على أستطيع
أن أكون عوناً لك على شأنك ، فهل أنت مريض ، فرفع يده
بيطء ووضعها على جبهته فوضعت يدي حيث أشار فشعرت برأسه
يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ثم أمررت نظري على جسمه فإذا
خيال سار لا يكاد يبينه رائي ، وإذا قميص فضفاض ^(٢) من الجلد
يموج فيه بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان
عندي من أشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلاً
ونظر إلى نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك ، فقلت ما شكائك
أيها الأخ ، قال لا أشكو شيئاً ، قلت فهل مرّ بك زمن طويل
على حالك هذه ؟ قال لا أعلم ، قلت أنت في حاجة إلى الطبيب

(١) طرف فلان نصره أطبق أحد حفيه على الآخر

(٢) القمفاض الواسع

فهل تأذن لى أن أدعوك اليك لينظر فى أمرك ؟ فتنهّد طويلاً
 ونظر الى نظرة دامعة وقال : إنما يبكى على الطبيب من يؤثر الحياة
 على الموت : ثم أنمض عينيه وعاد الى ذهوله واستغراقه ، فلم أجد
 بداً من دعاء الطبيب رضى ذلك أم أبى فدعوته فجاء متأففاً متذمراً
 يشكو من حيث يعلم أنى أسمع شكواه إزعاجه من مرقده
 وتجشيمه خوض الآزقة المظلمة فى الليالى الباردة فلم أحفل بأمره
 لأننى أعلم طريق الاعتذار إليه ، فجلس المريض وهمس فى أذنى
 قائلاً : ان عليك ياسيدى مشرف على الخطر ولا أحسب أن حياته
 تطول كثيراً إلا إذا كان فى علم الله مالا نعلم ، وجلس ناحية يكتب
 ذلك الأمر الذى يصدره الاطباء الى عمّالهم الصيادلة أن يتقاضوا
 من عبيدهم الرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت
 اليه الاعتذار الذى يريده فأحضرت الدواء وقضيت بجانب
 المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء
 مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر فاستفاق ودار
 بعينه حول فراشه حتى رآنى فقال أنت هنا ؟ قلت نعم ، أرجو أن
 تكون أحسن حالاً من ذى قبل ، قال أرجو أن أكون كذلك ،
 قلت هل تأذن لى ياسيدى أن أسألك من أنت ، وما مقامك
 وحدك فى هذا المكان ، وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت

من أهليه ، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همماً باطناً ؟ قال أشكوهما
معاً ، قلت فهل لك أن تحدثني بشأنك وتُفَضِّلَ إليَّ بهمك كما
يفضِّلُ الصديق إلى صديقه فقد أصبحت معنياً بأمرك عنايتك
بنفسك ؟ قال هل تعدني بكتمان أمرى أن قسم الله لى الحياة
وبتنفيذ وصيتى إن كانت الأخرى ؟ قلت نعم ، قال قد وثقت
بوعدك فإن من يحمل فى صدره قلباً شريفاً مثل قلبك لا يكون
كذاباً ولا خائناً

أنا فلان بن فلان مات أبى منذ عهد بعيد وتركنى فى
السادسة من عمرى فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً
فكفلنى عمى فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم برأ
وإحساناً ، وأكثرهم عطفاً وحناناً ، فأنزلى من نفسه منزلة لم
ينزلها أحد من قبلى غير ابنته الصغيرة وكانت فى عمرى أو أصغر
منى قليلاً ، وكأنا سره أن يرى لها يجانبها أخاً بعد ما تمى ذلك
على الله زمنًا طويلاً فلم يدرك أمنيته فعنى بي عنايته بها وأرسلنا
إلى المدرسة فى يوم واحد ، فأنست بها أنس الاخ بأخته وأحببتها
حباً شديداً ووجدت فى عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب
بتلك الغضاضة التى كانت لا تزال تعاود نفسى بعد فقد أبوى
من حين إلى حين ، فكان لا يرانا الرأى الا ذاهبين إلى المدرسة

أو عائدين منها أو لاعبين في فناء المنزل أو هائمين في حديقته
أو مجتمعين في غرفة المطالعة أو متحدثين في غرفة النوم حتى جاء
يوم حجابها فلزمت منزلها واستمررت في دراستي

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحلّه إلا ريب المنون،
فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها، ولا أرى نور السعادة
إلا في فجر ابتساماتها، ولا أوثّر على ساعة أقضيها بجانبها جميع
لذات العيش ومسرّات الحياة، وما كنت أشاء أن أرى خصلة
من خصال الخير في فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو
عفة أو شرف أو وفاء إلا وجدت فيها

وإني أستطيع وأنا في هذه الظامة الحالكة من الهموم
والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من
السعادة التي كانت تظلمنا أيام طفولتنا معاً فتشرق لها نفسانا
إشراق الراح في كأسها، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت
مراح لذاتنا، ومسرح أمانتنا وأحلامنا، كأنها حاضرة بين يدي
أرى لألاء ماثها، ولمعان حصباثها، وأفانين أشجارها، وألوان
أزهارها، وتلك المقاعد الحجرية التي كنا نتخذها منها فنجتمع
فوقها على حديث تجاذبه أو طاقة نؤلف بين أزهارها، أو كتاب
نقرأه معاً، أو رسم نشترك في النظر فيه، وتلك الحائل الخضراء

التي كنا نفيء إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة
فأشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها
وتلك الحفائر الجوفاء التي كنا نحتفرها بأيدينا على شواطئ
الجدول والغدران فنملؤها ماء ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها
التي ألفيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشيء منها كأننا
ظفرنا بغنم عظيم ، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي
فيها عصافيرنا ثم تقضى الساعات الطوال بجانبها نعبث بمنظرها
ومنظر مناقيرها الخضراء وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب
أخرى ، ونناديها بأسمائها التي سميناها بها . فإذا سمعنا صفيها
ظننا أنها نلبي نداءنا

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي في نفسي ودا
واخاء . أو حباً وغراماً ، ولكنني أعلم أنه إن كان حباً فقد كان بلا
أمل ولا رجاء ، فما قلت لها يوماً أنني أحبها لأنني كنت أضن
بها وهي ابنة عمي ورفيقة صباي أن أكون أول فاتح لهذا البحر
الأليم في قلبها ، ولا قدرتُ في نفسي يوماً من الأيام أن أصل
أسباب حياتي بأسباب حياتها لأنني كنت أعلم أن أبويها لا
يَسْتَحْوَان بِمِثْلِها على فتى بائس فقير مثل ، ولا حاولتُ في ساعة

من الساعات أن تسقط^(١) منها ما يطمع في مثله المحبون
المتسقطون . لأنني كنت أجهل أن أنزل بها إلى مثل ذلك ،
ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها
لأن علم أي المنزلين أنزلها من قلبها ، منزلة الأخ فأقنع منها بذلك .
أو منزلة الحبيب ، فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها ، بل كان
حبي لها حب الراهب المتبتل لصورة العذراء المائلة بين يديه في
صومعته يعبدها ولا يدنو منها .

ولم يزل هذا سنائي وشأنها حتى نزلت بمعنى نارلة من المرض
القاتل لم تنسب^(٢) أن ذهبت به إلى جوار ربه ، وكان آخر ما
نطق به في آخر ساعات حياته أن قل لزوجته وكان يحسن بها
ظناً « لقد أعجاني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام فكوني
له أمماً كما كنت له أباً وأوصيك أن لا يفقدني بعد موتي إلا
سنخسى » فاهو إلا أن مررت أبام الحداد حتى رأيت وجوهاً
غير الوجوه ونظرات غير النظرات وحالاً غريبة لا عهد لي بمثلها
من قبل ، فنداخلني الهم والياس ووقع في نفسي للمرء الأولى في
حياتي انني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ، وفي هذا العالم يتيماً ،

(١) تسقط ملان الحبر أخذه شتا بعدى .

(٢) لم تنسب لم تلت .

فانى جالس فى غرفتى صبيحة يوم اذ دخلت نحوى الخادم وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمت نحوى باكية منكسرة وقالت : قد أمرتني سيدتى زوجة عمك أن أقول لك ياسيدى إنها قد عزمت على تزويج ابنتها فى عهد قريب ، وإنها ترى أن فى بقائك بجانبها بعد موت أبيها ما يربها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكناً هذا الجناح الذى تسكنه من القصر ، فهى ترى لك أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها تقوم لك هى بشأته وشأن نفقاتك فيه

فكأنما عمّدت إلى سهم مرّيش فأصابته بكبدى إلا أننى تماسكت قليلاً ريثما قلت لها سأفعل ذلك ان شاء الله . فأنصرفت لشأنها فخلوت بنفسى ساعة من الزمان أطلقت فيها السبيل لعبرتى ما شاء الله أن أطلقها حتى جاء الليل فعمّدت إلى حقيبتى فأودعتها ثيابى وكتبتى وقلت

« قد كان كل ما أسعد به فى هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذى أحببته وأحببت نفسى من أجله وقد حيل بينى وبينه فلا أسف على شئ بعده »

ثم انسلت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشمر أحد بمكانى ولم أترود منها قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من

وراءِ كلِّتها ^(١) وهي نائمة في سريرها فكانت آخر عهدي بها
لعمرك ما فارقت بغداد عن قلبي لو آتانا وجدنا من فراق لها بدا
كفى حزناً أن رحتم لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث بساكنها عهداً



وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه برهة من الزمان فراق
آدم جنته وخرجت منه شريداً طريداً حائراً ملتاعاً قد اصطلحت
على مختلفات الموموم والأحزان . فراق لا لقاء بعده . وفقر لا ساد
لخيلته . وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ولا معيناً
وكانت معي صُباية ^(٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار
تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة في هذا السطح مسكناً
فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمت الرحيل إلى حيث أجد
في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها ،
فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط ببلدة حتى
تنازعني نفسي إلى أخرى ولا تطلع على الشمس في مكان حتى
نغرب عني في غيره حتى شعرت في آخر الأمر بسكون في نفسي
يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين لا يفيض ولا يفيض ،

(١) الكلة السر الرقيق

(٢) الصباية البقية من الشيء.

فَقَنِعْتُ بِذَلِكَ وَكَانَ مِيعَادُ الدِّرَاسَةِ السَّنَوِيَّةِ قَدْ حَانَ فَعَدْتُ
وَقَدْ اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِي أَنْ أُعِيشَ فِي هَذَا الْعَالَمِ مُجْتَمِعًا كَمُفْرَدٍ
وَحَاضِرًا كَغَائِبٍ وَقَرِيبًا كَبَعِيدٍ وَأَنْ أَهْوَى بِشَأْنِ نَفْسِي عَنْ كُلِّ
شَأْنٍ سِوَاهُ وَأَنْ أُسْتَعِينَ عَلَى نَسْيَانِ الْمَاضِي بِاجْتِنَابِ آثَارِهِ
وَمُظَاهَرَةِ فَلَزِمْتُ غُرْفَتِي وَمَدْرَسَتِي لَا أَتْرُكُ إِحْدَاهُمَا إِلَّا إِلَى
الْأُخْرَى وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فِي نَفْسِي إِلَّا نَزَوَاتُ
تَعَاوُدِ قَائِي مِنْ حِينَ إِلَى حِينَ فَأُسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِقَطْرَاتٍ مِنَ الدَّمْعِ
أَسْكِبُهَا مِنْ جَفْنِي فِي خُلُوقِي مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ مَا بِي فَأَجِدُ
بِرْدَ الرَّاحَةِ فِي صَدْرِي

لَبِثْتُ عَلَى ذَلِكَ بَرَّةً طَوِيلَةً حَتَّى عَدْتُ بِالْأَمْسِ إِلَى تِلْكَ
الْفَضْلَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي يَدِي مِنَ الْمَالِ فَإِذَا هِيَ نَاضِبَةٌ أَوْ مُوْشَكَةٌ .
وَكُنْتُ مَأْخُوذًا بِأَنْ أَهْيِي لِنَفْسِي عَيْشًا مُسْتَقْبَلًا وَأَنْ أُؤَدِّيَ
لِلْمَدْرَسَةِ قِسْطًا مِنْ أَفْسَاطِهَا وَالْمَدْرَسَةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ حَانُوتُ فَاسٍ لَا تَبَاءُ
فِيهِ السِّلْعُ نَسِئَةً . وَالْعِلْمُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مُرْتَزَقٌ يَرْتَزَقُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ .
لَا مَنَحَةٌ يَمْنَحُهَا الْمُحْسِنُونَ . فَأَهْمَتْنِي نَفْسِي وَعَلِمْتُ أَنِّي مُشْرِفٌ عَلَى
الْخَطَرِ وَلَا أَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَى الْقُوَّةِ بِوَجْهِ وَلَا حِيلَةَ فَعَمِدْتُ إِلَى
كُتُبِي فَاسْتَبَقَيْتُ مِنْهَا مَا لَا غِنَى لِي عَنْهُ وَحَمَلْتُ سَائِرَهَا ^(١) فَذَهَبَتْ

به الى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملاً فلم أجد من يبلغ
به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزناً منكسراً وما على وجه
الأرض أحد أذل منى ولا أشقى

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فناءه امرأة تسائل أهل
البيت عنى فتبينتها فاذا هى الخادم التى كانت تخدمنى فى منزل عمى
فقلت فلانة ؟ قالت نعم ، قلت ماذا تريدن ؟ قالت لى اليك كلمة
فأذن لى بها ، فصعدت بها إلى غرفتى فلما خلونا قلت هات ،
قالت سرت بى ثلاثة أيام أفتش عنك فى كل مكان فلم أجد من
يدلنى عليك حتى وجدتكَ اليوم بمد اليأس منك ، ثم انفجرت
بأكية بصوت عال فراعنى بكأؤها وخفت أن يكون قد حل
بالبيت الذى أحبه بأس فقلت ما بكأوك ؟ قالت أما تعلم شيئاً من
أخبار بيت عمك ؟ قلت لا فآ أخباره ؟ فدت يدها إلى رداها
وأخرجت من أصفافه ^(١) كتاباً مقفلاً فتناولته منها ففضضت
غلافه فاذا هو بخط ابنة عمى فقرأت فيه هذه الكلمة التى لا
أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقتى ولم تودعنى فاعتفرت
لك ذلك ، أما اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أعتفر لك
أن لا تأتى الى لتودعنى الوداع الأخير »

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت البابَ مسرعاً فتملقت
الخدام بثوبي وقالت أين تريد يا سيدي ؟ قلت إنها مريضة ولا
بد لي من المصير إليها ، فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت
محتنق لا تفعل يا سيدي فقد سبقك القضاء عليها

هنالك شعرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم
له مكاناً ثم دارت بي الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها
في مكاني لا أشعر بشيء مما حولى فلم أفق إلا بعد حين ففتحت
عيني فإذا الليل قد أظلني وإذا الخادم لا تزال بجانبى تبكي
وتتنحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ قالت
نعم ، قلت قصي على كل شيء فقالت

إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد فراقك فقد
سألتني في اليوم الذي رحلت فيه عن سبب رحيلك فحدثتها
حديث الرسالة التي كنت حملتها إليك من زوجة عمك فلم تزد
على قولها « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ، إنهم
لا يعلمون من أمره ولا من أمرى شيئاً » ثم لم يحجر ذكرك على
لسانها بعد ذلك بخير ولا شرّاً كما كانت تعالج في نفسها ألماً
مُعضناً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها
فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الالبسامات

العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطت على فراشها مريضة لا تُبَلَّ^(١) يوماً حتى تنكس أياماً فراع أمها أمرها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك فلم تدع طيباً ولا عائداً إلا فرِعت إليه في أمرها فما أغنى العائد ولا الطيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً

فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليالٍ إذ شرَّت بها تحرك في مضجعتها فدنوت منها فأشارت إلى أن آخذ بيدها ففعلت فاستوت جالسةً وقالت: في أي ساعة نحن من ساعات الليل؟ قلت في الهزيع الأخير منه، قالت أنت وحدك هنا؟ قلت نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً، قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن؟ فعجبتُ لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت بلى يا سيدتي أعلم مكانه، وما كنت أعلم شيئاً ولكنني أشفت على هذا الخيط الرفيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع باقِطاعه آخر خيط من خيوط أجلاها، فقالت ألا تستطيعين أن تحملي إليه كتاباً مني من حيث لا يعلم أحد بشأني؟ قلت لا أحب إلى من ذلك يا سيدتي، فأشارت أن آتيها بحبرتها فجثتها بها

(١) أبل من مرضه برئ منه

فكتبت إليك هذا الكتاب الذى تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك فى كل مكان وأنصفح وجوه الغادين والرائحين بكل سبيل على أراك فلم أعرف الطريق إليك ، حتى انحدرت الشمس الى مغربها فعدت الى المنزل وقد مضى شطر من الليل فابلغت حتى سمعت الناعية فعلمت أن السهم قد أصاب المقتل وأن تلك الوردة الناضرة التى كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت اليوم آخر ورقة من ورفاتها ، فحزنت عليها حزن الثاكل على ولدها ومارئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً وكان أكبر ما أمني من أمرها أن كل ما كانت ترجوه فى آخر يوم من أيام حياتها أن تراك ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيها ، فلم أزل كاتباً أمر الرسالة فى قسى ولم أزل أطلب السبيل إليك حتى وجدتك

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فأنصرفت . فما انقردت بنفسى حتى شعرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظرى كل شيء ثم لا أعلم ماذا تم لى بعد ذلك حتى رأيتك



وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر زفرة خلت

أن كبده قد ارفضت^(١) وأن هذه أفلاذها، فدنوت منه وقلت
ما بك يا سيدى ، قال بى انى أطلب دمة واحدة أتفرج بها مما
أنا فيه فلا أجدها

ثم سكّت ساعة طويلة فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات
فأصغيت إليه فاذا هو يقول

« اللهم انك تعلم أنى غريب فى هذه الدار لا سند لى فيها
ولا عضد ، وانى فقير لا أملك من متاع الدنيا ما أعود به على
نفسى ، وانى عاجز مستضعف لا أعرف السبيل الى باب من
أبواب الرزق فى هذه الحياة بوجه ولا حيلة ، وان الضربة التى
أصابت قلبى قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الدماء^(٢)

وانى أستحييك أن أمد يدى الى هذه النفس التى أودعتها
بيدك بين جنبي فأنزعها من مكانها وألقى بها فى وجهك ساخطاً
ناقماً ، فامدد أنت يدك اليها واستردّ وديعتك اليك واتقلها الى
دار كرامتك فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك ،

ثم أمسك رأسه بيديه كأنما يحاول أن يجبسه عن الفرار
وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسى يحترق احتراقاً وبقلبي

(١) ارفض الشيء تفرق وترش

(٢) الدماء بيه المس

يذوب ذوبا ولا أحسبني باقيا على هذا ، فهل تمدني أن تدفني
معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ قلت
نعم وأسأل الله لك السلامة ، قال الآن أموت طيب النفس عن
كل شيء .

ثم انتفض انتفاضة خرجت نفسه فيها وهو يقول (أحسنت
إلى حيا فأحسن إلى ميتا)



لقد هوّن وجدى على هذا البائس المسكين انى استطعت
تنفيذ وصيته فدفتنه حيث أراد ودفنت معه تلك الرسالة التى
دعته ابنة عمه فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حيا ،
فلباها ميتا

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذاك الصديقان الوفيان
اللذان ضاق بهما فى حياتهما فضاء القصر ، فوسعهما بعد موتهما
فضاء القبر

الشهداء

« مترجمة »

لم يبقَ لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها،
وأخ شفيق يحنو عليها، وصُباة من المال ترشفت^(١) الرزق منها
ترشفاً مصانعةً للدهر فيها
أما الصُباة فقد أنصبت، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمةً
ذهبت بماله ويجمع ما يمتلك، فأصبحت من بعده لا تملك مالا
ولا عضداً

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش
مالا يستطيع أن يحتمله بشر، نفاطت الملابس حتى عشي^(٢)
بصرها، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها، ودخلت المصانع
حتى كلت، وخدمت في المنازل حتى ذلت، ولكنها استطاعت
أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها

(١) ترشفت الابل الماء أخذته طيلاً طيلاً
(٢) عشي ساء بصره بالليل والنهار وله معان أخرى غير ذلك

ما كان مثلها أن يحيا على مثل ذلك ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنهما معاً ، فقد كانت اذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تنبعث من سماء الرحمة الالهية حتى تتلاقى في فؤادها فتتلاهم عزاء وصبراً ، شعاع الأنا يس بولدها ، وشعاع الرجاء في أخيها ، وشعاع السرور بما وفقت إليه من صيانة عرضها دارت الأيام دورتها فاكتملت الأم وشب الولد وانتقل ثم قلبها إلى قلبه وكان لا بد له أن يعيش وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه ، فشئ يتصفح وجوه الرزق وجهاً وجهاً ، ويرد مناهله منهلًا منهلًا ، حتى وقف به حظه على حرفة الرسم فأناس بها وما زال يعطيها من نفسه وجدّه حتى مهر فيها ، والمهارة لا تدل على صاحبها بنفسها بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمرّ خاملاً مغموراً لا تدبر له حرفته إلا القطرة بعد القطرة ، في الفينة بعد الفينة ^(١) فلم يستطع أن يسعد أمه ولكنه استطاع أن يلا جوفها ، فقنعت بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب الثاني عنها حنت إليه

حنين النيب^(١) الى فصاها^(٢) وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً ولم تر منه كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم ، فلا تجد لها بداً كلما حاجها الوجد إلى من أن تلجأ إلى ذلك الملاجئ الوحيد الذى يفرع إليه جميع البائسين والمزومين فى بأسائهم وضرائهم ، خلوتها ودموعها ، فتبكي ماشاء الله أن تفعل ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسة كأن لم تكن باكية قبل ذلك

دخل عليها ولدها يوماً فى خلوتها فرآها تبكى ورأى فى يدها صورة فتبينها فإذا هى صورة خاله فألم بسريرة نفسها وأمسك وراء أهداب عينيه دموعه مترقرة ما تكاد تماسك ومشى إليها حتى وضع يده على عاتقها وقال رفعى عن نفسك يا أمه فستعلمين خبر غائبك عما قليل ، فتطأق وجهها وأضاء وقالت وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال قد علمت أن معرضاً سيقام للرسم فى بعض مدن أميركا بعد بضعة شهور وانهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى وقد وعدنى بعض المحسنين أن يساعدنى على الشخوص إليه على أن ألت ما أقيم به وجهى وأنفذ به نفسى وتقتسك من هذا الشقاء ، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده

(١) الـ جمع اب وهى الافة المسه

(٢) الفصل جمع فصل وهو ولد الباه أو البهره اذا فعلت عى أمه

أو أجد منقطع أثره ؛ فاستسرّ بشرها الذي كان متلاثلنا وقالت
لا تفعل يا بني فما أنا بشقية مارأيتك بجانبى وما أنت بشقى ما فنعمت
بما قسم الله لك ؛ ولئن فعلت لا تكونن امرأة على وجه الأرض
أعظم منى لوعة ولا أشقى ، ولئن بكيت لفراق أخى مرّة فسا بكى
لفراقك ألف مرّة ، وإنى كلما ذكرته وجدت فى وجهك العزاء
عنه فمن لى بالعزاء عنكما إن فارقتما منى معاً ؟

فإزال يروضها ويمسحها ويمسحها فى رحلته الأمانى حتى
أساست واطمأنت وأساست إلى الله أمرها

وما هى إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته
فاذا الأم وحيدة فى فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب
فى أميركا لا يعرف له سنداً ولا عضداً



وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هناك وكان يمتل
فيه موقف الوداع الذى جرى بينه وبين أمه على شاطئ البحر
يوم رحيله ، وكان موقفاً حزناً فأحسن تمثيله فأعجب بحمالة القوم
وأثر فى نفوسهم منظره فقبضوا له بالجائزة التى كان يمتنى نفسه
بها ، فاحصلت فى يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهل الأرض
طراً ؛ وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ؛

وانه ما ذاق قبل اليوم مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء . وكذلك يعبت الدهر بالانسان ما يعبت ويذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء والوان الآلام حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرأبه^(١) وملاً قلبه غيظاً وحنقاً أطلع له في تلك السماء المظلمة المذهمة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترد به إلى حظيرته راضياً مغتبطاً كما تقاد الشاة البلهاء بأعواد الكلا إلى مصرعها ، فأسعد الدهر بالانسان وما أشق الانسان به أرسل الفتى الى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضه وكتب إليها أنه لن يرح هذه الأرض حتى يبنى لها بما عاهد عليها ، ومشى يفتش عن خاله في أعراض البلاد ويسأل عنه كل من لقيه في طريقه من القاطنين أو الطارئين^(٢) حتى حدثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم منذ سنين إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك ، فشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل الى جزيرة موحشة مقفرة وكانت سماء تلك البلاد لا تزال تغشى صفحتها بقية من ظلمات المصور الأولى فرّ بقبيلة من قبائل الزنج كانت نازلة هناك وراء بعض الهضاب المشرفة فما رأوه حتى هاجت

(١) أراه شككه وحل فيه رية (٢) الطارئون (المأخرون)

في صدورهم أحقاد العداوة اللونية التي لا يزال يضررها هؤلاء
القوم لكل شيء أبيض حتى للشمس المشرقة ، والكواكب
الزاهرة ، فداروا به دورة سقط من بعدها أسيراً في أيديهم
فاحتلوه حتى وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هناك في نفق تحت
الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام »



هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة
من الأمل يوم المعرض إغماهى خدعة من خدع الدهر وأكذوبة
من أكاذيبه وأن ما كان يقدره لنفسه في مستقبل حياته من
سعادة وهناء قد ذهب بذهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة
بالية في تاريخ الدهر الغابر

ولقد كان في استطاعته أن يجأد للنازلة التي نزلت به
ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها ، ولكن الذي آداه^(١) وأفله
أن هناك إنساناً آخر كريماً عليه يتأسسه إليها ، فقد أصبح يحمل
مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد

نزلوا به إلى الحبس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات
فسلكوه فيها ، ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ،

(١) آده الاسر أودأ بلغ مه محوده

فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم يرَ أمامه شيئاً فلم يعلم هل
 كُفَّ بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فخرجت عن
 ناظره كل شيء حتى نفسها ، ولم يزل في حيرة تلك حتى انقضى
 الليل فأنحدر إليه من ثقب صغير في حائط الحبس خيط أبيض
 دقيق من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه ، فأنس به أنس
 الغريب بالغريب وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه
 ليؤنسه في وحدته واستمر بصره خالفاً به لا يفارقه أينما سار وحيثما
 انتقل حتى رآه يتقبض شيئاً فشيئاً ، ويتراجع قليلاً قليلاً ،
 ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط
 منها ، فحزن لفراقه حزن العشير لفراق عشيره ودار بينيه حول
 نفسه فإذا قطع سوداء مظلمة تدبج وتكاثف من حوله ويهوج
 بعضها في أحشاء بعض ، وإذا هو قطعة من تلك القطع هائلة
 فيها هيمن الروح الخائر في ظلمات القبور ، فما يكاد يعرف مكانه
 منها ، فثب في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلصصها
 بيده تلمساً حتى سمع صاصلة السلسلة المتلفة بقدميه فوجدها ،
 وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسه باكياً منتحباً

وهكذا انقطع هذا المسكين عن العالم كله ، خيره وشره ، ولم
 يبقَ بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره

في كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه في كل مساء ،
وما صرّت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه ،
ونسي أمه ، ونسي العالم الذي كان يعيش فيه ، والعالم الذي انتقل
إليه ، ونسي الليل والنهار ، والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء ،
وأصبح في منزلة بين منزلي الحياة والموت ، فلا يفرح ، ولا يتألم ،
ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل ، ولا يعلم هل هو حجر بين
الأحجار ، أو قطعة بين قطع الظلام ، أو جسم يتحرك ، أو خيال
يسرى ، أو وهم من الأوهام ، أو عدم من الأعدام



صرّت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها
ولا تجد من يدها عليه فأصبح من براها في طريقها يرى عجوزاً
حدياء والهة متسلبة^(١) مدهوباً بها^(٢) قد توكأت على عصا
ما تزال تضطرب في يدها ، وأسبأت فوق جسمها الناحل المحقوقف
أهداماً^(٣) خلقتنا بحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلي
منها أهداباً منلاصقة ، أو مزقاً^(٤) متطائرة ، تقف صدر النهار
بأبواب المعابد والكنائس تسأل الله أن يرحمها ، والناس أن

(١) المسئلة الى أحد على روحها أو صر.
عقله ويقال أن يدهب بك أي يهلك (٢) المدهوب به الملوب
(٣) الاهدام جمع هدم بالكسر وهو التوب التوب التال
(٤) المرن قطع التوب المرة

يطمموها، حتى إذا زلت الشمس عن كبد السماء أخذت سمّتها^(١)
إلى شاطئ البحر وجلست فوق صخرة من صنوره تناجي
أمواجه ورماله، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجم كوكبه في أفق
السماء، فإذا سرّت إليها نسمة وجدت ريح ولدها فيها، وإذا
أقبلت عليها موجة ظنت أنها رسول منه إليها، وإذا تراءت لها
شبة سوداء على سطح البحر حسبتها السفينة التي تحمله، فلا
يزال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى تدنو من الشاطئ فتقف
في طريق الركبان تنصفح الوجوه وتتوهم الشمائل وتهتف باسم
ولدها صارخة موعلة وتقول: عباد الله من يدلني على ولدي أو
ينشدني في معالم الأرض ومجاهلها، فلقد أضللتني منذ عهد بعيد
فأراني الدهر من بعده فلا أنا سالية عنه ولا واجدة سبيلا
إليه، فاحتسبوها بدءاً عند الله وحدثوني عنه حديثاً واحداً هل
عاد معكم، أو تخلف عنكم ليعود على أثركم، أو انقطع الدهر به
فلا أمل فيه بعد اليوم؟ فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم ما تقول،
وربما سمعها بعض الناس فظنوا امرأة ملثاة^(٢) فرثي لها، أو
سائلة فتصدّق عليها

ولا يزال هذا شأنها في موقفها حتى ترى الأمهات والأخوات

(١) السب الطريق (٢) اللث من واختلط

والبنات قد عدنَ بأولادهنَّ واخوتهنَّ وآبائهنَّ إلى منازلهنَّ ولم
يبقَ على شاطئ البحر من غادٍ ولا راثٍ فتنناول عصاها وتعودُ
أدراجها إلى بينها فتأخذُ مجلسها من حافة قبرٍ كانت قد احتفرتَه
بيدها في أرض قاعها وتوهمته مدفنًا لولدها توهماً فتبكي وتقول
في أي بطن من بطون الأرض يا بُني مضجعتُ ، وتحت
أي نجم من نجوم السماء مصرعتُ ، وفي أي قاع من قيعان البحر
مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك
لو يعلم الطير الذي مرَّق جنتك ، أو الوحش الذي ولع في
دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه ، أو البحر الذي طواك
في جوفه ، أن وراءك أمًّا مسكينة تبكي عليك من بعدك
لرحمك لأجلى

عُدْ إلى يا بني فقيرًا أو مسكينًا أو مقعدًا أو كفيفًا فحسبي
منك أن أراك بجاني في الساعة التي أفارق فيها هذه الحياة
لاقبلك قبلة الوداع وأعهد اليك أن تزور مضجعتي في مطلع كل
شمس ومغربها لنخف بزورك عنى ضمة القبر ، وتستدير بوجهك
الوضاء ظلماته الخالكة

ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهنَّ إلى القبور ، وما
أشقى الأمهات اللواتي يسبقهنَّ أولادهنَّ إليها ، وأشقى منهنَّ

تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت ديبيا وهي لا تعلم هل
تركت ولدها وراءها ، أو انها ستجده أمامها
وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها ، فلم تزل تبكي ولدها
بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بصرها ذهاباً بصره ، ولكنها
لم تستطع عن يوسفها صبراً



دخل السجان على الفتى عشية ليلة في محبسه فاقترب منه
ومدّ يده إلى سلسلته فأنزعها من حلقها فلم يقل شيئاً ولم يسأله
ماذا يعمل ، وماذا يريد ، وأين يذهب به ، ولم يسأل نفسه هل
هي ساعة نجاته ، أو ساعة حمامه ، ثم قاده بيده إلى خارج الحبس
حتى وصل به إلى صخرة عظيمة رابضة على مقربة من مجتمع
القبيلة فشد سلسلته إليها وتركه وشأنه ، ففتح عينيه فرأى مكاناً
غير مكانه ، ومنظراً غير منظره ، وسماً وأرضاً غير سمائه وأرضه ،
فبدأ شعوره يعود إليه شيئاً فشيئاً حتى استفاق فلم بما كان فيه ،
وبما صار إليه

هنا ذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن
وظلمته ، والقيد ووطأته ، ثم طار بخیاله الى ما وراء البحار فذكر أمه
وشقاءها من بعده ، وحنينها إليه ، ويأسها من لقائه ، فذرفت

عَيْنُهُ دَمْعَةٌ كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ دَمْعَةٍ أَرْسَلَهَا مِنْ جَفْنِهِ مِنْ تَارِيخِ شَقَائِهِ،
وَمَا زَالَ يَرْسِلُ الْعَبْرَةَ أَثَرَ الْعَبْرَةِ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَسْتَفِيقُ حَتَّى مَضَى
شَطْرَ مَنْ اللَّيْلِ وَهَذَا النَّاسُ جَمِيعًا فِي مَضَاجِعِهِمْ فَأَسْلَمَ رَأْسَهُ إِلَى
رُكْبَتَيْهِ وَذَهَبَ بِخَيَالِهِ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ

فَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ وَقَدْ رَقَّتْ فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ إِذْ شَعَرَ بِرَيْدِ
تَلَسَّ كَتِفِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا شَبَحَ أَيْضًا قَائِمٌ فَوْقَ رَأْسِهِ فَخُيِّلَ
إِلَيْهِ أَنْ مَلَكًا نَوْرَانِيًّا نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ عَلِيَاءِ السَّمَاءِ لِيَنْقُذَهُ مِنْ شَقَائِهِ
فَتَبَيَّنَتْهُ فَإِذَا فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ بِيَضَاءٍ مَا دَارَتْ الْمَنَاطِقُ وَلَا التَّفَتُّ الْأَزُرُّ^(١)
عَلَى مِثْلِهَا حَسَنًا وَبِهَاءً، تَتَشَّى فِي بِيَاضِهَا سَمَرَةٌ رَقِيقَةٌ كَسَمَرَةِ
السَّحَابِ الرَّهْوِيِّ^(٢) الَّذِي يَخَالُطُ وَجْهَ الشَّمْسِ فِي ضَحْوَةِ النَّهَارِ،
فَسَأَلَهَا مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ أَنَا فَتَاةٌ مِنْ فَتَيَاتِ هَذَا الْحَيِّ وَقَدْ
أَلَمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ فَعَلِمْتُ أَنَّكَ شَقِيٌّ فَرَحَمْتُكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ
بِحُبَّتِكَ أَطْلُقُ وَنَافَقُكَ لَتَذْهَبَ حَيْثُ تَشَاءُ، فَلَا مَثُوبَةَ يَقْدُمُهَا الْمَرْءُ
بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ يَوْمَ جَزَائِهِ أَفْضَلُ مِنْ مَوَاسَاةِ الْبَائِسِ وَتَفْرِيجِ كَرْبَةِ
الْمَكْرُوبِ، فَجَبَّ لَزْنَجِيَّةٌ بِيَضَاءٍ، وَوَثْنِيَّةٌ تَعْبُدُ اللَّهَ، وَبِرْبْرِيَّةٍ
تَحْمِلُ بَيْنَ جَنِيِّهَا قَلْبًا يَمُطِفُ عَلَى الْبُؤْسَاءِ وَالْمُنْكَوِينِ، وَقَالَ
فِي نَفْسِهِ مَا هَذِهِ الْفَتَاةُ بَدَتْ مِنْ شَأْنٍ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهَا

(١) الْأَزْرُجُ ارْأَرَ (٢) الرَّهْوَالِقِيُّ

ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه ، وأنساء كل شأن من
 شؤون الحياة إلا شأنها ، فلبث صامتاً واجماً لا ينطق ولا يرفع
 رأسه حتى أعادت عليه كلامها فرفع رأسه إليها وقال : اذهبي
 لشأنك يا سيدتي فاني لا أريد النجاة : فعلت أنها زفرة من
 زفرات اليأس فدنت منه ووضعت يدها على عاتقه وقالت لا تجعل
 للياس إلى قلبك أيها الفتى سبيلاً ، وانجُ بحياتك من يد الموت
 فليس بينك وبينه إن أنت بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك
 قناع هذا الليل فإذا أنت فلذ طائرة مع شفرات السيوف ، فلا
 تقجع نفسك في نفسك ؛ ولا تقجع هذه المسكينة الواقفة بين
 يديك فيك ، فان شديداً على جداً أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد
 الذابح ، أو مضغعة في فم الآكل ، قال إنك لا تستطيعين
 نجاتي ، قالت لا أفهم ما تقول فاني ما جئتك إلا وأنا عالة ماذا
 أصنع ، قال قد كنت قبل اليوم موثقاً بوئاق واحد فأصبحت
 موثقاً بوئاقين ، فان استطعت أن تحلّي وئاق قديم فانك
 لا تستطيعين أن تحلّي وئاق قلبي ، فألّمت بسريرة نفسه
 فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة فرفع
 رأسه إليها ولبث شاخصاً إلى وجهها نظراً المصور الماهر إلى
 تمثاله البديع حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جفنها على

(٣ - البراء)

وجهه فجرت في مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه
دمعةً مثلها فالتقت بدمعتها في مجراها فامتزجتا معاً ، فذَّ يده إلى
ردائها فاجتذبها إليه وقال قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي
بجانبي نتحدث قليلاً ، فجلست على مقربة منه فقال لها : إن
امتزاج دمي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أنَّا لا نفرق
بعد اليوم أحياء أو أمواتا ، فإن كنتِ تريدن لي النجاء فاني
لا أنجو إلا بك . قالت ليتني أستطيع ذلك يا سيدى ، قال وما
يمنعك منه ؟ فنظرت إليه نظرة دامعة وقالت : لا يمنعني شيء ،
سوى انى أخاف أن أُحبك : قال ومم تخافين ؟ قالت لا أعلم ،
قال أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار ولكنى
أسألك أن تتركينى وشأنى وتدعينى في يد القدر يفعل بي
ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراكِ أما اليوم فحسبى
عزاء عما ألاقيه من غُصصه وآلامه نظرة رحمة تُأفئها على في
مصرعى ، ودمعة حزن تُسكينها من بعدى على تربتى ، فما
استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالمقد وهى سلكه
فاتثر ، ثم مشت إلى قيده فعاجلته حتى انصدع وقالت إني
ذاهبة معك وليقبض الله فيّ وفيك قضاءه

ما زال يطويان القفار ، ويمبران الأنهار ، ويضحيان^(١) مرة
ويخصران^(٢) أخرى ، وبردان آجن^(٣) المياه وصفوها ، ويقتاتان
يابس الثمار ورطبها ، فإذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطئ غدير
أو سفح جبل أو يا إليه فاستراحا بجانبه قليلاً ثم عادا إلى شأنهما
وكانت لا تزال تُغشى وجه الفتاة مذكّرة موطئها سحابة
سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه ، وكانا إذا نزلاً منزلاً
وأخذتا مضجعهما من ترابه وأحجاره نهضت من مرقدها بعد
هدأة من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر
بمكانها ومدّت يدها إلى صدرها فتناولت صليفاً صغيراً فقبلته ثم
أنشأت تهمهم بكلام خفي كأنما تناجي شخصاً غائباً عنها فتستغفره
من ذنب جنته إليه مرة وتطلب معوته على أمر لا تعرف كنهه
ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى ، حتى يباثق نور الفجر فتعود
إلى مرقدها ، وكان كلما سألتها عن شأنها التوت عليه ودافعت عنها
حتى تذهب^(٤) أن يعاودها فتركها وشأنها وقد أصبح يحمل في
صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير

(١) ذبحي من ناب علم برز للشمس

(٢) خسر كسع برد وده (وايمبالعنى فيخسر)

(٣) الآجن من الماء الذي تمر طعمه ولونه

(٤) الذمم مجابهة القم ومنه (لولم أرك الكذب تأتما أركه ندماً) أي استنكفاً

ثلاثين يوماً على سواد العمران فاستبشرا وعلما أنها قد أصبحت
في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك فجلسا بجانبه تحت شجرة
مورقة يتحدثان وهي أول مرة جلسا فيها للحديث فقال لها :
ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة القائلة في هذه القفرة الجرداء
هذه الأيام الطوال إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادة
لا أحسب أنه قد أعد خيراً منها لعباده المتقين في جنات النعيم ،
قالت ومتى كانت الحياة الدنيا موطننا للسعادة أو مستقراً لها ،
ومتى سعد أبناءها بها ففسد مثلهم كما سعدوا ؟ إن كان لابد من
سعادة في هذه الحياة فسادتها أن يعتقد المرء أن لا سعادة فيها ،
ليستطيع أن يقضى أيامه المقدرة له على ظهرها هادئ القلب
ساكن النفس لا يكدر عليه عيشه أمل كاذب ، ولا رجاء خائب ،
قال إن السعادة حاضرة بين أيدينا وليس بيننا وبينها إن أردناها
إلا أن تنطوى أماننا هذه المرحلة الباقية من هذا القفر فنلجأ
إلى أول يات نلقاه في طريقنا من بيوت الله فنقضى فيه ساعة
واحدة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل ،
ولا يكدر صفونا مكدر ، فأطرقت هنيئة ثم رفعت رأسها فإذا
دمعة صافية تنحدر على خدها فقال ما بكأوك يا سيدتي ، قالت

أَتَذْكُرُ لَيْلَةَ النِّجَاجَةِ إِذْ دَعَوْتَنِي إِلَى الْفِرَارِ مَعَكَ فَقُلْتُ لَكَ إِنِّي
أَخَافُ أَنْ فَرَرْتُ مَعَكَ أَنْ أُحْبِكَ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَتْ وَاحْصِرْتَاهُ
أَحْصِبْنِي قَدْ وَفَعْتُ الْيَوْمَ فِيمَا كُنْتُ مِنْهُ أَخَافُ ، ثُمَّ صَرَخَتْ صَرْخَةً
عَالِيَةً وَقَالَتْ : مَاذَا فَعَلْتَ يَا أُمَّاهُ ! وَسَقَطَتْ مَكْبَةً عَلَى وَجْهِهَا ،
فَدَنَا مِنْهَا وَأَمْسَكَ يَدَهَا فَإِذَا رَعْدَةٌ شَدِيدَةٌ تَمَشَّى فِي أَعْضَانِهَا
فَعَلِمَ أَنَّهَا الْبُرْدَاءُ فَالَقَى عَلَيْهَا رِدَاءَهُ وَعَمِدَ إِلَى بَعْضِ الْأَشْجَارِ فَاقْتَطَعَ
مِنْهَا بَضْعَةً أَعوَادَ وَمَشَى يَفْتَشُ عَنِ النَّارِ فِي كُوخٍ كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ
عَلَى الْبَعْدِ حَتَّى بَلَغَهُ فَوَجَدَ عَلَى بَابِهِ كَاهِنًا شَيْخًا جَلِيلَ الْمَنْظَرِ فَدَنَا
مِنْهُ وَحِيَّاهُ تَحِيَّةً حَيًّا بِأَحْسَنِ مِنْهَا وَقَالَ لَهُ مَا شَأْنُكَ يَا بَنِي ؟ قَالَ
إِنْ يَجَانِبُ ذَلِكَ النَّهْرُ فَنَقَاةٌ مَسْكِينَةٌ تَرَكْتَهَا وَرَأَيْتُ تَشْكُو الْبَرْدَ
فَهَلْ أَجِدُ عِنْدَكَ جَذْوَةً نَارَ أَعْوَدٍ بِهَا إِلَيْهَا لِتَصْطَلِيَ بِهَا ؟ فَكُنَّهْ
مِنْ طَلَبَتِهِ وَقَالَ لَهُ كَتَبَ اللَّهُ لَكَ وَلَعَلَّيْتُكَ السَّلَامَةَ يَا بَنِي فَادْهَبْ
فَاتَى عَلَى أَثَرِكَ ، فَعَدَا الْفَتَى عَدْوًا شَدِيدًا حَتَّى بَلَغَ النَّهْرَ فَأَدْهَشَهُ
أَنْ رَأَى الْفَتَاةَ هَادِئَةً سَاكِنةً طَيِّبَةَ النَّفْسِ لَا تَشْكُو بَرْدًا وَلَا أَلَمًا
فَاقْبَلَ عَلَيْهَا مَبْتَسِمًا وَقَالَ لَهَا لَعَلَّ مَا كَانَ يَخَالِطُ نَفْسَكَ مِنَ الْأَلَمِ
لَمْ يَذْكُرْ أَهْلَكَ وَوَطَنَكَ قَدْ ذَهَبَ بِذَهَابِ الْأَيَّامِ ، قَالَتْ مَا كَانَ
يَخَالِطُ نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَاجْلِسْ أُحَدِّثُكَ حَدِيثِي فَقَدْ آتَى أَنْ
أُقْضَى بِهِ إِلَيْكَ ، فَجَلَسَ يَجَانِبُهَا فَانْشَأَتْ تَحْدِثُهُ وَتَقُولُ

أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها
غير تنسى ولا من أرضها إلا قبراً قد زال اليوم رسمه ، وبلي مع
الأيام دفينه ، فقد ولدتنى أمى على فراش رجل أبيض وفد من
دياركم منذ عشرين عاماً فالتقى بها عند مرورهِ بِحِثِّها فأحبها وأحبتهُ
ثم فرّت معه إلى ما وراء هذه الصحراء فدانت بدينه ثم تزوجها
فولدتانى فدنّتُ بدينهما وعشنا جميعاً حِقْبَةً من الدهر عيشَ
السعداء الآمنين ، وكان رجال قبيلة أمى لا يزالون يتطأون السبيل
إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاة فى aisle من ليالى الظلام
فاقتادونا جميعاً إلى أرضهم ، وكنتُ إذ ذاك لم أَسْلُخِ العاشرة من
عمرى فقتلوا أبى أمامى وأمام أمى قِتْلَةً لا يزال منظرُها حاضراً
بين يديّ حتى الساعة لا يفارقنى ، فزنتُ أمى عليه حزناً شديداً
ما زال يدنو بها من القبر شيئاً فشيئاً حتى جاءت ساعتها فحضر
موتها رسولٌ من رسل المسيح كان لا يزال يخالف إليها من حين
إلى حين فدعتنى إليها أمامه وقالت لى : يا بنية إن أمى قد ولدتنى
للشقاء على هذه الأرض وأحسب أنى قد ولدتك له كما ولدتنى
فحسبنا ذلك فلا تكونى سبباً فى شقاء أحد من بعدك ، وانذرى
نفسك للعذراء نذراً لا يحلُّهُ إلا الموت : فاذهبتُ لأمرها
وأشهدتُ الكاهن على نذرى فتلاها ووجهها بشراً ثم نظرت نظرة

في السماء وقالت : ها ئنذا على أثرك يا رافائيل : ثم فاضت ورحها .
 فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها هل تعرفين
 وطن أهلك وأسرته ؟ قالت نعم وسمتهماله فاستطير فرحاً وسروراً
 وقال : أحمدهم فقد وجدت ضالتي : فمجيبت لأمره وقالت :
 وأى ضالة تريد ؟ قال أنذكرين يوم اللقاء إذ امتزجت دمعانا
 معاً فقلت لك انها صلة يني وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ قالت
 نعم ، قال قد كنت أمّت^(١) إليك قبل اليوم بجرمة الحب وحدها ،
 فأصبحت أمّت إليك بجرمة الحب والقربى ، فأنت اليوم حبيبتي
 وابنة خالي معاً ، فقالت بصوت خافت أحمدهم فقد وجدت لي في
 هذه الساعة المصيبة أخاً ، وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ،
 ووجهها يربد شيئاً فشيئاً ، فدعر الفتى وارناعاً وحنناً عليها وقال
 ماذا أرى ؟ قالت لا تُرّع فاصغِ إليّ فان لحدبني بقية لم تسمعها ،
 انني مذ حفظت وصية أبي ووهبت للعذراء نفسي كان لا بد لي
 أن آخذ لي مفرعاً فزعم اليه في اليوم الذي أخاف أن ينابني فيه
 هواي على دني ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى
 جاء اليوم الذي خففته فاجأت إليها فنجوت وأستودعك الله ،
 فنظر الفتى حيث أشارت فرأى قارورة ملقاة وراءها فتناولها

(١) مت اليك كما توسل اليه .

نَازِها هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها فلم كل شيء
هناك شعراً كأن شُعبَةً من شعاب قلبه قد هوت بين
أضلاعه ، وكأن طائراً طار عن رأسه يجناحيه الى جو السماء فصعق
في مكانه صمعة لم يشعر بعدها بشيء مما حوله فلم يستفق إلا بعد
حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة وإذا الكاهن
صاحب الكوخ واقف أمامه يحمل على كفه طعماً كان قد جاء به
إليهما وينظر نظرة الحائر المشدود لما يرى ، فوثب الفتى إليه حتى
صار أمامه وجهاً لوجه ونظر إليه نظرة شذراء كتلك النظرة
التي يلقيها الموتور على وجه واتره وكأنما خولط في عقله فاخذ
بهذي ويقول :

أتدري أيها الرجل كم مانت هذه الفتاة ، لأنها وهبت
نفسها للمعدراء ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين
فأبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً الى الخلاص إلا سبيل الانتحار
فانتحرت

تلك جرائمكم يا رجال الأديان على وجه الارض ، ما كفاكم
أن جماعتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ماتحلون ، وتربطون
ماتربطون ، حتى قضيتهم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذاً ولا رداً
إن الذي خلفنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق

لنا هذه القلوب وخاق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نُحبَّ وأن نعيش في هذه الدنيا سعداء ، فما شأنكم أنتم أيها الفضوليون والدخول بين المرء وربّه ، والمرء وقلبه

إن الله في ملكوت سمائه أرفع شأننا وأعلى مكاننا من أن تتناوله أنظارنا ، فنحن لا نستطيع أن نراه إلا في آثاره ومصنوعاته ، فلا بدّ لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه

إن كنتم تريدون أن نعيش على هذه الأرض بلا حب فاتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ، فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة وقلوب

أتظنون أيها القوم أن الله ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدبر ، ومن ظلمة الدبر إلى ظلمة القبر ؟ بلست الحياة حياتنا إذن وبئس الخلق خلقنا

إنا لا نملك في هذه الدنيا سعادةً نحيا بها غير سعادة الحب ولا نعرف لنا ملجأً نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادةٍ غيرها قبل أن تطلبوا منا أن تتنازل لكم عنها هذه الطيور التي تغرد في أعشاشها وإنما تغرد بنغات الحب ، وهذا النسيم الذي يتردد في الأجواء إنما يحمل في أعطافه رسائل

الحب ، وهذه الكواكب في سماءها ، والشموس في أفلاكها ،
والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها ، والسواثم في مراتعها
والسوارب في أجارها ، إنما تعيش جميعا بنعمة الحب ، فحق كان
الحيوان الأعجم والجماد الصامت أيها القساة المستبدون أرفع شأننا
من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياء ،

هنيئاً لها جميعاً أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا نسمع
منكم ما نطقون ، فقد نجت بذلك من شرّ عظيم ، وشقاء مقيم
إنا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نمتدّ لكم
بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم
أو نسمع أصواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم
ومناوركهم ، فإنا لا نستطيع أن نابعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها
إف وراءنا نساء ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول
ونحن نخافكم عليهم أن يمتدّ شركهم إليهم ، فلا بد لنا أن نفد في
وجوهكم ونعرض سبيلكم لنذودكم عنهم حتى لا نصاوا إليهم
فنفسدوا عليهم البقية الباقية لهم من قلوبهم وعقولهم

إنا لا نعبد إلا الله وحده ولا نشرك به غيره ، وإنا نستطيع
أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون داييل يدلنا عليه فلا حاجة
لنا بكم ولا بوساطتكم

كتابُ الكونِ يغنينَا عن كتابكم ، وآياتُ الله تغنينَا عن آيَانكم ، وأناسيد الطبيعة وأنماتها تغنينَا عن أناشيدكم ونغمَانكم ، وهذا الجمال المترقّق في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ، ومتحرّكه وساكنه ، إنّما هو مرآة نقيّة صافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فنخترُ بين يديه ساجدين ، ثم نصفي إليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا (أيها الناس إنّما خلّقتُ الجمال مُتعة لكم فتمنعوا به ، وإنّما خلّقتُم حياةً للجمال فأحيّوه) ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع سواه



وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، ووهت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط في مكانه يزفرّ زفيراً شديداً ، ويئنّ أليناً محزناً ، فاقرب منه الشيخ ووضع يده على رأسه وقال ارفق بنفسك يا بني فما أنت بأوّل ناكل على وجه الأرض ، ولا راحلك بأوّل راحل عنها ، وإن في رحمة الله ورضوانه غنى للصّابرين ، وجزاءً للمحسنين ، فتعاقب الفتى بيده ققبلها وقال اغفر لي ذنبي يا أبت فقد كنت من الظالمين ، قال غفر لك الله يا بني فما دون رحمة الله باب موصد ولا رِجاج فأمّ ، قال له يا أبت إنّ هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض وليس لها فيها أحد سواي ، وقد مات من

أجلى وفي سبيلى ، فهل تأذن لى أن أدنوّ منها لأقبلها قبلة الوداع
فى آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟ قال افعل يا بنى ،
فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمّها اليه ضمةً شديدة
وأهوى بفسه على فها فقبلها لأول مرة فى حياته قبلةً فاضت
روحه فيها



فى الساعة التى دُفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة
المورقة على شاطئ ذلك النهر الجارى صرّت بكوخ العجوز امرأة
من نجاراتها كانت تعتادها بالزيارة من حين إلى حين فنظرت
إلى مكانها الذى اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح
فرأته خالياً فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها معقّرة
بترابها لا حراك بها ، فلأت بالتراب الذى كانت مجتمعاً حول
الحفرة تلك الأشبار الخمسة التى هى مسافة ما بين الحياة والموت
ثم أسبلت فوق تربتها دَمعة كانت هى كل نصيبها من الدنيا

الحجاب

« موضوعة »

ذهب فلان الى أوربا وما نُكِرُ من أمره شيئاً فلبث فيها
بضع سنين ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء
ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها وعاد بوجه كوجه
الصخرة للمساء تحت الليلة الماطرة ، وذهب بقاب نقيّ طاهر
يأنس بالعفو ويستريح الى العذر وعاد بقلب مائف مدخول
لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمة على السماء
وخالقها ، وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس فوقها وعاد
بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقى نظره واحدة
على ما تحتها ، وذهب برأس مملوء حكمة ورأياً وعاد برأس كراش
التمثال المثقوب لا يماؤه الا الهواء المتردد ، وذهب وما على وجه
الأرض أحب إليه من دينه ووطنه وعاد وما على وجهها أصغر
في عينه منها

وكنـت أرى أن هذه الصور الغريبة التى يترأى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم انما هى أصباغ مفرغة على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطأع عليها شمس المشرق فتمحوها كأن لم تكن ، وأن مكان المدينة الغريبة من نفوسهم مكان الوجه من المرأة اذا انحرف عنها ، زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته على علاته وفاء بعهده السابق ورجاء لعهده المنتظر محتلاً فى سبيل ذلك من حُمة ووسواسه وفساد تصوراته ، وغبابة أطواره ، ما لا طاقة لى باحتمال مثله حتى جأنى ذات ليلة بداهية الدواهى ، ومصيبة المصايب ، فكانت آخر عهدى به

دخلت عليه فرأيتـه واجماً مكتئباً خبيته فأومأ إلى بالنحية إجماء فسألته ما باله ، فقال ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة فى عناء لا أعرف السبيل إلى التخلص منه ، ولا أدرى مصير أمرى فيه ، قلت وأى امرأة تريد ؟ قال تلك التى يسميها الناس زوجتى ، وأسميها الصخرة العاتية القائمة فى طريق مطابى وآمالى ، قات إنك كثير الآمال يا سيدى فعن أى آمالك تُحدث ؟ قال ليس لى فى الحياة إلا أمل واحد ، وهو أن أغمض عيني ثم أفتحها فلا أرى برقعاً على وجه امرأة فى هذا البلد ، قلت ذلك ما لا تملكه

ولا رأى لك فيه ، قل إن كثيراً من الناس يرون في الحجاب
 رأى ، ويتمنون في أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين تمزيقه عن
 وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يحالستهم كما يجلس بعضهم
 إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبه التي لا تزال نلّم بنفس
 الشرق كلما حاول الاقدام على أمر جديد فرأيت أن أكون أول
 هادم لهذا البناء العادى^(١) القديم الذى وقف سداً دون سعادة
 الأمة وارتعائها دهرًا طويلاً وأن يتم على يدي من ذلك ما لم يتم
 على يد أحد غيرى من دعاة الحرية وأشياعها فعرضت الأمر على
 زوجنى فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنى جنتها بنكبة من
 نكبات الدهر أو رزية من رزاياه وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال
 فأنها لا نستطيع أن تبرز إلى النساء من بعد ذلك حياء منهن وخجلاً
 ولا خجل هناك ولا حياء ولكنه الموت والجود والدل الذى ضربه
 الله على هؤلاء النساء فى هذا البلد أن يمشن فى قبور مظلمة
 من خدورهن وخمرهن حتى يأتين الموت فينتقلن من مقبرة
 الدنيا إلى مقبرة الأخرى ، فلا بدّ لى أن أبلغ أمنيته ، وأن أعالج
 هذا الرأس القاسى المنحجر علاجاً ينهى بأحدى الحسينين ، إما
 بكسره أو بسفائه

(١) العادى كالديم نسبة إلى صله عاد

فورد على من حديثه ما ملأ نفسي هما وحزنا ونظرت إليه
 نظرة الراحم الرائي وقلت له أعالم أنت أيها الصديق ما تقول ؛
 قال نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعة من
 نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت ، قلت هل تأذن لي أن
 أقول لك إنك عشت برهة من الزمان في ديار قوم لا حجاب
 بين رجالهم ونسائهم فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من
 الأيام وأنت فيهم بالطم في شيء مما لا تملك يمينك فقلت ما
 تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة ، قال ربما وقع لي شيء من
 ذلك فإذا تريد ؛ قلت أريد أن أقول لك إنى أخاف على عرضك
 أن يلتم به من الرجال ما ألم بأعراض الرجال منك ، قال إن المرأة
 الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها في حصن
 حصين لا تمتد إليه الأعناق ، فندخلني ما لم أملك نفسي معه
 وقلت تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء
 والنبلمة التي يعثر بها في زوايا رؤوسكم فينحدرونها إلى عقولكم
 ومدارككم فيفسدوها عليكم فالشرف كلمة لا وجود لها إلا في
 قواميس اللغة ومعاجمها فان أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس
 وأفئدتهم فانا لا نجد لها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال
 صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستنقع كدر ، والعفة

لون من ألوان النفس لا جواهر من جواهرها ، ولما تَبَيَّنَت
الألوان على أشعة الشمس المتساقطة ، قال أتكر وجود العفة
بين الناس ، قلت لا أنكرها لأنني أعلم أنها موجودة بين البلّاء
والضعفاء والمتعمّلين ولكنني أنكر وجودها عند الرجل القادر
المختبئ والمرأة الحاذقة المترفة إذا سقط من بينهما الحجاب وخلا
وجه كل منهما لصاحبه

في أيّ جوّ من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم
لرجالكم أيها القوم ؟

أفي جوّ المعلمين وفيهم من سئل مرة لمّ لم يتزوج ، أجاوب
نساء الأمة جميعاً نسائي

أم في جوّ الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين أصدقائه حياة
وخجلاً أن عاد من أوربا حاملاً في محفظته أقل من عشر صور
لحشيقاته ومائة كتاب غرامٍ منهم

أم في جوّ المعلمين وفيهم من يرى في ثمرات التريّة رأى
الجوس في ثمرات الأصلاب

أم في جوّ الرعاع والنوغاء وكثير منهم يدخل البيت خادماً
ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً

وبعد فما هذا الولع بقصة المرأة ، والتحقّق^(١) بمحدثها ،

(١) تمحق صوت بساء عند استنابة الطعام

والقيام والعود بأمرها ، وأمر حجابها وسفورها ، وحرمتها
وأمرها ، كأنما قد فتم بكل حق واجب للأمة عليكم في أنفسكم
فلم يبقَ إلَّا أن تُقيضوا من تلك النعم على غيركم

هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فان عجزتم عن
الرجال فأنتم عن النساء أعجز

أبواب الفخر أمامكم كثيرة فاطرقوا أيها شتم ودعوا هذا
الباب ، وصدا فانكم ان فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلاً عظيماً ،
وشقاء طويلاً

أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه
يملك هواه بين يدي امرأة يرضاها فأصدق ان امرأة تستطيع
أن تمتلك هواها بين يدي رجل ترضاه

إنكم تكافون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه ،
وتطلبون عندها ما لا تجدونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها
في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أنزيمونها من بعدها أم
تخسرونها ، وما أحسبكم إن فعلتم راجحين

ما شكت المرأة اليكم ظمأ ، ولا تقدمت اليكم طالبة أن
تحاولا قيدها ، وتطلقوها من أسرها ، فادخلواكم بينها وبين
نفسها ، وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ،

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم ، ولصوفكم بها ،
ووقوفكم في وجهها حيثما سارت ، وأينما حلت ، حتى ضاق بها
وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في
بيتها فوق ما سجنها أهلها ، فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت
أسنارها ، تبرّماً بكم ، وفراراً من فضولكم ، فواغياً لكم تسجنونها
بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتدبون شقاءها

إنكم لا تزنون لها بل تزنون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها
بل على أيام قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرّجاً وسفوراً ،
ويتدفق حرية واستهتاراً ، وتودون بجمع الأنف لو ظفرت هنا
بهذا العيش الذي خلقتموه هناك

لقد كنّا وكانت العفة في سقاء^(١) من الحجاب موكو^(٢) ، فما
زلم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقباً والعفة تتسأل منه قطرة
قطرة حتى تقبض^(٣) وتضائل ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جثم
اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة
عاشت المرأة المصرية حقة من دهرها هادئة مطمئنة في
بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة

(١) السقاء وطاء الماء من حلد السحلة (٢) أوكي القرية شد رأسها بالوكاء
والوكاء الرباط (٣) تقبض يس

في واجب تؤديه لنفسها، أو وقفة تقفها بين يدي ربها، أو عطفة تمطفها على ولدها، أو جلسة تجلسها الى جارتها فتبثها ذات نفسها، وتنبثها سريرة قابها، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لآبيها، واثمارها بأمر زوجها، ونزولها عند رضاها، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام، فتحب زوجها لأنه زوجها، كما تحب ولدها لأنه ولدها، فان رأى النساء غيرها أن الحب أساس الزواج، رأت هي أن الزواج أساس الحب، فعلم لها ان هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهالك ليسوا بأكبر منك عقلاً، ولا أفضل رأياً، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك، فازدرت أباهها، وتمردت على زوجها، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الضاحكة مناحة فائمة لا تهدأ نارها، ولا يخبو أوارها وقتل لها لا بد لك أن تختار زوجك بنفسك حتى لا يخذلك أهالك عن سعادة مستقبلك فاختارت بنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها فلم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والمذاب الأليم

وقلم لها إن الحب أساس الزواج فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعّدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج

وقلم لها إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها
وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق فأصبحت تطلب
في كل يوم زوجاً جديداً يُحْيِي من لوعة الحب ما أمات القديم .
فلا قديماً استنبتت ولا جديداً أفادت ^(١)

وقلم لها لا بد لك أن تتعلمي لتحسنى تربية ولدك والقيام
على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء ، إلا تربية ولدها والقيام على
شؤون بيتها

وقلم لها إن لا تزوج من النساء إلا من نجبها ونرضاها ، ويلانم
ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا ، فكان لا بد لها أن تعرف مواقع
أهوائكم ، ومسارح أنظاركم ، لتجمل لكم بما نجبون ، فراجعت
فهرس أعمالكم في حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء
الخليعات المستهترات ^(٢) والضاحكات اللاعبات ، والاعجاب بهن ،
والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم ،
وتنزل عند محبتكم ، ثم تقدمت اليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف
تعرض نفسها عليكم عرضاً كما يعرض النحاس أمته في سوق الرقيق
فأعرضتم عنها ، ونبوتم بها ، وقلم لها إن لا تزوج النساء العاهرات ،
كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات اذا سلّمت

(١) أفاد بمعنى اسعاد (٢) استهتر ملان ايج هواه ملا يبالى بما يفعل

لكم نساؤكم، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة، وقد أباهما الخليع،
وترفع عنها المحتشم، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت
وهكذا انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعها، وتمشت
الظنون بين رجالها ونسائها، فتحاجز الفريقان، وأظلم الفضاء
بينهما، وأصبحت البيوت كالآديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً
مترهبين ونساء عانسات

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحون، وهذا رثاؤكم لها،
وعطفكم عليها

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة إلى العلم فليهدبها
أبوها وأخوها فليهدب أنفع لها من العلم، وإلى اختيار الزوج
العادل الرحيم فليحسن الآباء الاختيار لبناتهم وليجعل الأزواج
عشرة نسايتهم، وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتمتع فيهما بنعمة
الحياة فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غدواتها
وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب، فإن
عجزنا عن أن نأخذ الآباء والأخوة والأزواج بذلك فلتنفض أيدينا
من الأمة جميعها نسائها ورجالها فليست المرأة بأقدر على إصلاح
نفسها من الرجل على إصلاحها

أعجب ما أعجب له من شؤونكم أنكم تعلمون كل شيء إلا

شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو
أن لكل ثروة نبأنا ينبت فيها ، ولكل نبات زماناً ينمو فيه .

رأيتكم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد
فرغت من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يزال سوادها
الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء

ورأيتكم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب
ملحده لها من عقولها وآدابها ما قد يغنيها بعض الغناء عن إيمانها
فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء
ورأيتكم الرجل الأوربي حراً مطلقاً يفعل ما يشاء ويعيش
كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم
فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا بتخطاها
فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الإرادة والعزيمة
يعيش من حياته الأدبية على رأس منحدر زلق فان زلت به
قدمه مرة انحدر من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ
الهوة ويتردى في قراراتها

ورأيتكم الروح الأوربي الذي أنضجت الأيام رأسه وأزالت
خشونة نفسه وحرمتها يستطيع أن يرى زوجته تحاصر من
تشاء من الرجال ، وترافق من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقف

أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد فأردتم من الرجل الشرقى
الغيور المتلهب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمسكه .
ورأيتم المرأة الأوريسة الجريئة المتفتية تستطيع فى بعض
مواقفها بين الرجال أن تحتفظ بعصمتها فأردتم من المرأة المصرية
الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها ، وتحتفظ بنفسها
احتفاظها

وكل نبات يزرع فى أرض غير أرضه ، أو ساعة غير ساعته ،
إما أن تأباه الأرض فتلفظه ، وإما أن ينشأ فيها فيفسدها
إنا نضرع اليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية أن
تركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة آمناً مطمئناً فى
بيوتهن ، ولا تزجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزجتم من قبلهن ،
فكل جرح من جروح الأمة له دواء الأجرح الشرف فلا دواء
له ، فان أيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ربما تنتزع
الايام من صدوركم هذه الغيرة التى ورثوها عن آبائكم وأجدادكم
لتستطيعوا أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعداء آمنين



فما زاد الفتى على أن ابتسم فى وجهى ابتسامة الهزء
والسخرية وقال تلك حماقات ماجئنا إلا لما جئنا فلنصطبر عليها

حتى يقضى الله بيننا وبينها ، فقلت له لك أمرك في نفسك وفي أهلك
فلاصنع بهما ما تشاء واأذن لى أن أقول لك إني لا أستطيع أن
أختلف اليك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسى لأنى أعلم أن
الساعة التى ينفرج لى فيها جانب ستر من أسنار بيتك عن وجه
امرأة من أهلك تقتلنى حياة وخجلاً ، ثم انصرفت وكان هذا
آخر ما بينى وبينه

وما هى إلا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً
هتك الستر فى منزله بين نسائه وأصدقائه ، وان يئته قد أصبح مغشياً
لا تزال النعال خافقة ببابه ، فدرفت عيني دمة لا أعلم هل هى
دمة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود



مررت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورنى
ولا ألقاه فى طريقه إلا قليلاً فأحبيه تحية الغريب للغريب من
حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق فى سبيلى
فانى لعائد إلى منزلى ليلة أمس وقد مضى الشطر الأول من
الليل إذ رأيتُهُ خارجاً من منزله يمشى مشية المضطرب الحائر وبجانبه
جندى من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمنى أمره
ودنوت منه فسألتُهُ عن شأنه فقال لا أعلم لى بشىء سوى أن

هذا الجندي قد طرّق الساعة باني يدعوني إلى مخفر الشرطة ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سبباً وما أنا بالرجل المذنب ولا المرّيب ، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي القديم بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا على احتاج إلى معونتك فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون ؟ قلت لا أحب إلى من ذلك ومشيت معه صامتاً لا أحده ولا يقول لي شيئاً ثم شعرت كأنه يزور^(١) في نفسه كلاماً يريد أن يفضي به إليّ فيمنعته الخجل والحياء ففأتمتته الحديث وقلت له : ألم تستطع أن تذكر لهذه الدعوة سبباً ؟ فنظر إليّ نظرة حائرة وقال إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث مؤلم فقد راى من أمرها أنها لم تعد إلى منزلها حتى الساعة وما كان ذلك شأنها من قبل ، قلت أما كان يصحبها أحد ؟ قال لا ، قلت ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ قال لا ، قلت وممّ تخاف عليها ؟ قال لا أخاف شيئاً سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فتمرّست عليه فوقمت بينهما واقعةً أنتهى حديثها إلى رجال الشرطة ، وكنا قد وصلنا إلى المخفر فافتادنا الجندي إلى قاعة المأمور حتى صرنا بين يديه فأشار

(١) زور الكلام في تمه هياه

إلى جندي أمامه إسارة لم تفهمها ثم استندني الفتى إليه وقال له يسوءني يا سيدي أن أقول لك إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريّة على رجل وامرأة في حال غير صالحة فاقنادهما إلى المحفر فزعمت المرأة أن لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها وأثر صاحبها فإن كانت صادقة أذنّا لها بالأصراف معك إكراماً لك ، وإبقاء على شرفك ، وإلا ففهي امرأة فاجرة لا نجاه لها من قانون الفاجرات ، وهما وراءك فالنظرهما ، وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى فنظراً فإذا المرأة زوجته ، وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المحفر وملأت نوافذه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط في مكانه مغشياً عليه ، فأثرت على الماء ور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا الطبيب فقرر أنه مصاب بحمى دماغية شديدة ولبت ساهراً يجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف الطبيب على أن يعود متى دعونا وعهد إلى بأمره فلبت بجانبه أرثى لحاله وأنظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه ثم فتح عينيه فرآني فلبت شاخصاً إلى هنيهة كأنما يحاول أن يقول لي شيئاً فلا يستطيعه فدنوت منه

وقلت هل من حاجة يا سيدي ، فأجاب بصوت ضعيف خافت :
 حاجتي أن لا يدخل عليّ من الناس أحد ، قلت لن يدخل عليك
 إلا من تريد ، فأطرق هنيئة ثم رفع رأسه فاذا عيناه مبتلتان
 بالدموع فقلت ما بك أو لك يا سيدي ، قال أعلم أين زوجتي الآن ،
 قلت وماذا تريد منها ، قال لا شيء سوى أن أقول لها إني
 عفوت عنها ، قلت إنها في بيت أبيها ، قال وارجتاه لها ولا ييها
 وجميع قومها فلقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أجداداً فألبسهم
 مذ عرفوني ثوباً من العار لا يبلوه إلا يوم

من لي بمن يبلغهم عني جميعاً أني رجل مريض مشرف
 واني أختي لفاء الله إن لقينهُ بدمائهم واني أضرع اليهم أن
 يصفحوا عني ، ويفنروا ذنبي ، قبل أن يسبقَ إليّ أجلي
 لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهتمتُها^(١) أن أصون عرضها
 صياني لحياتي ، وأن أمنعها مما أمتع منه نفسي ، فخنثتُ في يميني
 فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه

إنها قتلتي ولكني أنا الذي وضعت في مدها الخنجر الذي
 أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي

البيت باقي والزوجة زوجتي والصدديق صدقي وأنا الذي

(١) أهدي الرجل امرأته جميعاً إليه وصمها

فتحت باب يتي لصديقي الى زوجتي فلم يذنب الى أحدٍ سوى
 • ثم أمسك عن الكلام لحظة فنظرت اليه فاذا سحابة سوداء
 تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً حتى لبست وجهه زفرة
 خلت أنها خرقت حجاب قلبه ثم أندأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عيني وما أضيق الدنيا في وجهي
 في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت
 أراها جالسين يتحدثان فتمتلأ نفسي غبطةً وسروراً وأحمدُ الله
 على أن رزقني بصديق وفيّ يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجة
 سمحة كريمة تُكرم صديقي في غيبتى ، فقولوا للناس جميعاً إن
 ذلك الرجل الذى كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه
 أكيسُ الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله الى الغاية
 من البلاءه ، وغى الى الغاية التى لا غاية وراءها

والهفأ على أم لم تلدنى وأبٍ عاقر لا نصيب له فى البنين ؛
 لعل الناس كانوا يعلمون من أمرى ما كنت أجهل ، ولعلم
 كانوا إذا صررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويتسم بعضهم
 الى بعض أو يتحدثون الىّ ويطلون النظر فى وجهي ليرا
 كيف تمثل البلاءه فى وجوه البله ، والغباء فى وجوه الأغبياء ،
 ولعل الذين كانوا يطيفون بي ويتوددون الى من أصدقائي

إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجل ، ولعلمهم كانوا
يسمونني فيما بينهم وبين أنفسهم قَوَّادًا ، ويسمون زوجتي مومسًا ،
وييتي ماخوراً ^(١)

فوارحمته لي إن بقيتُ على ظهر الأرض بعد اليوم ساعةً
واحدة ، ووالهفاً على زاوية من زوايا قبر عميق يطويني ويطوى
طاري ممي

ثم أغمض عيني وحاد إلى ذهوله واستغراقه
وهنا دخأت الحجرة مريضاً ولده تحمله على يدها حتى دنت
به من فراشه فتركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على يديه حتى
علا صدره أيده فأحس به ففتح عينية فرآه فابتسم لمرآه وضمه إليه
ضمّة الرفق والحنان وأدنى فيه من وجهه كأنما يريد أن يقبله ثم
انفض فجأة واستسرّ بشره ودفعه عنه بيده دفعاً شديداً فانكفاً
على وجهه بكى ويصيح وقال أبعدوه عني ، لا أعرفه ، ليس لي
أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه أين مكانه واذهبوا به إليه ،
لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثراً خالداً ورأى بعد مماتي ،
وكانت المرنم قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحمّله وذهبت
به فسمع صوته وهو يتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت إليه واستعبر

باكياً وصاح أرجعوه اليّ ، فعادت به الرضّع فتناوله من يدها
وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول

في سبيل الله يائى ماخلف لك أبوك من اليتّم وما خلفت
لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما اليك فلقد كانت أمك امرأه
ضعيفة فمجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك
حسن النية في جريمته التي اجترمها فأساء من حيث أراد الاحسان
سواء أ كنتَ ولدى يائى أو ولد الجريمة فإني قد سعدت
بك برهه من الدهر فلا أنسى يدك عندي حياً أو ميتاً

ثم احتضنه اليه وقبله في جبينه قبله لا أعلم هل هي قبله
الأب الرحيم ، أو الرجل الكريم

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه
وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خفت عليه التلف فأرسلت وراء
الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردّها مملوءة
يأساً وحزناً

ثم بدأ ينزع نزعا سيّداً وبث أنيناً مؤلماً فلم يبق عين من
الميون المحيطة به الا ارفضّت عن كل ماتستطيع أن تجوده به
من مدامعها

فإنّا لجلوس حوله وقد بدأ الموتُ لسبل أسماره السوداء حول

سريره واذا بامرأة مثزرة بإزار اسود قد دخلت الحجرة وتقدمت
فحوه يبطء حتى ركمت بجانبه ثم أكبته على يده الممتدة فوق
صدره فقبلتها وأخذت تقول له

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإن أمه تعترف
بين يديك وأنت ذاهب الى ربك تسأله عن قولها أنها وان
كانت دنت من الجريمة فإنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدى
واسأل الله عند ما تقف بين يديه أن ياحقني بك فلا خير لى
فى الحياة من بعدك

ثم اتعجرت باكية ففتح عينيه وألقى على وجهها نظرة باسمه
كانت هى آخر عهده بالحياة وقضى



الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقى وأودعت
حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الراهب ، وجلست
لكتابة هذه السطور وأنا لأ كاد أملك مدامى وزفرائى فلا
يهون وجدى عليه الا أن الأمة كانت على باب خطر من
أخطارها فتقدم هو أمامها الى ذلك الخطر وحده فاقحمه فمات
شهيداً بين يديها فنجت بهلاكه

الذكرى

« مترجمة »

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة^(١) بعد انكساره أمام
جهوش الملك فردناند والملكة ايزابلا^(٢) على ساحل الخليج الرومي
تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله الى السفينة المعدة لحمله إلى
أفرقة وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماؤه قومه من بني
الأحمر فالتقى على ملكه الداهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلا
مبلة بالدمع ثم أدنى رداءه من وجهه وأسا يمينه بكاء مراراً
وناسجاً نشيجاً حزناً حتى بكى من حوله لبكائه وأصبح ساحل
البحر كأنه مناحة نائرة تتردد فيها الرفرات ، وتستيق العبرات ،

(١) هي حاضرة ملكى الأحمر في الأندلس . وهي آخر مدينة بقيت في يد العرب
بعد هلاهم عن أكثر بلاد الأندلس طاحلوا عنها ثم ملك حلاهم عن الأندلس جميعها
(٢) غار ١١١١ في أوائل حكم العرب في الأندلس عبارة عن عدة ممالك صغيرة
تسمى منها إلى مع حتى أصبحت ممالكين قويتين (الأراغون) و (قشتالة)
فدروا مديناً ملك الأراغون مارا الأندلس قشتالة سنة ١٤٦٩ واتحدوا على طرد
العرب من غرناطة فم لهذا ذلك بعد حروب كثيرة

فانه لو اقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه اذ
 احس هائفا يهتف باسمه بصوت عال كأنما ينحدر إليه من علياء
 السماء فرفع رأسه فاذا سبخ ناسك منكى على عصاه واقف على
 باب مغاره من مغارات الجبل المشرف عليه نظر اليه وتقول
 نعم لك أن تكلم أيها الملك الساقط على ما كان لك .
 فانك لم تحمى به احتياط الرمال

إنك نسكت بالأهـ س كبرا ، فالك اليوم بمعدا ،
 نسكت بالأمس ، فالسرور نهار الحياه ، والحزن ليل
 تلب الهار الساطع ، أن معبه الليل العاتم
 لو كان ما ذهب من يدك من ما كان ذهب بعسده من
 سد مات القدر أو تارله من نوازل العـ ما من حيب لا حول لك
 في ذلك ولا حياه لها أمره عاك ، أما وقد أضمت ردا ،
 وأسلمته إلى عدله بامسار ، فاب علمه كذا الماد المـ
 الذي لا يجد له عزاء ولا سلوى

لا اعظم الله عبـ ر رده ، ولا يريد بواحد منهم في أن
 من شؤبه سرا ولا صـ ا ، ولكهم ممنون على أن الهوه
 العمقه فترلهم أقدامه . ر ر تحت الصخره المشقه
 على رؤوسهم

لم تمنع بما قسم الله لك من الرزق فأيتت إلّا الملك والسلطان
فنازعت عمك الأمر واستغنت عليه بعدوك وعدوه فتناول رأسيكما
وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قايب^(١)
من الدم ففرقما فيه معاً

لى فوق هذه الصخرة بابى الأحمر سبعة أعوام أنتظر هذا
المصير الذى درتم إليه وأترقب اله اعة الذى أرى فيها آخر ملك
منكم برحل عن هذه الديار رحلة لا رجوع له من بعدها ، لأنى
أعلم أن الملك الذى يتولى أمره الجاهلون الأغبياء ، لا دوام له
ولا بقاء.

أأخذ بعضكم بعضاً عدواً ، وأصيح كل منكم حرباً على
صاحبه ، فسقطتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه
بعض والعدو رابض من ورائكم تبرص بكم الدوائر ويرى فى
نفسه أن كلا منكم قائد من هواد جيشه نابـ يـ يديه لقتال
أعدائه ، والمناضلة عن ملكه ، حتى رأى كما انتهافنون^(٢) على أنفسهم
ضعفاً ووهناً فاهى إلّا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم جميعاً
ستقفون غداً بين يدى الله باملك الاسلام وسيأسألكم
عن الاسلام الذى أضتموه وهبطتم به من علياء عبده حتى

(١) اللسان ٦١ (٢) ١٠٤٠ الى ١٠٤١

أَلصَقْتُمْ أَفْئَهُ بِالرَّعَامِ^(١) ، وعن المسلمين الذين أَسْلَمْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ
إِلَى أَعْدَائِهِمْ لِيَعِيشُوا بَيْنَهُمْ عِيشَ الْبَائِسِينَ الْمُسْتَغْنَيْنِ ، وعن
مَدَنِ الْإِسْلَامِ وَأَمْصَارِهِ الَّتِي اخْتَرَاهَا آبَاؤُكُمْ بِدِمَائِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ ثُمَّ
تَرَكُوهَا فِي أَيْدِيكُمْ لِتَذُودُوا عَنْهَا ، وَتَحْمُوا ذِمَّارَهَا ، فَلَمْ تَفْعَلُوا
حَتَّى غَلِبَكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ عَلَيْهَا ، فَأَصْبَحْتُمْ تَعِيشُونَ فِيهَا عِيشَ الْأَذْلَاءِ ،
أَوْ تُطْرَدُونَ مِنْهَا كَمَا يُطْرَدُ الْغُرَبَاءُ ، فَاذَا يَكُونُ جَوَابُكُمْ إِنْ
سَأَلْتُمْ عَنْ هَذَا كُلِّهِ غَدَاً ،

هَاهِي النَّوَاقِيسُ تَرَنُّ فِي رُؤُوسِ الْمَآذِنِ بَدَلَ الْأَذَانِ ،
وَهَاهِي الْمَسَاجِدُ تَطْلُأُ نَمَالُ الصَّلَيبِيِّينَ فِي تَرْبَتِهَا مَوَاقِعَ جِبَاهِ الْمُسْلِمِينَ
وَهَاهُو الْمَسْلَمُ يَفْرُّ بِدِينِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَيَلُودُ بِأَكْنَافِ
الْهَضَابِ وَالشَّرِيبِ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَدِيَ شِمِيئَهُ^(٢) مِنْ شَعَائِرِ
دِينِهِ إِلَّا فِي غَارِ كَهَذَا الْعَارِ الَّذِي أُعْيِنَ فِيهِ

لَيْتَ الْمُسْلِمِينَ عَاشُوا دَهْرَهُمْ فَوْدَهُ ، لَا نِظَامَ لَهُمْ وَلَا مُلْكَ
وَلَا سُلْطَانٍ كَمَا يَعِيشُ الْيَهُودُ الْمَشْرَدُونَ فِي أَفَاقِ الْبِلَادِ ، وَهَذَا كَانَ
ذَلِكَ خَيْرَ أَلْهِمٍ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ رِجَالُ مَتَاكُمِ طَامِعُونَ مُسْتَبِدُونَ
يَضُمُّونَ فِي أَعْنَاقِهِمْ جَمِيعاً غُلّاً وَاحِداً لِسُوقِهِمْ بِهِ إِلَى مَوَارِدِ
التَّلَبِّ وَالْهَلَاكِ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذُوداً عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا
دَفْعاً ، وَمَا تَفْعَلُ الْفَوْضَى بِأُمَةٍ مَا يَفْعَلُ بِهَا الْإِسْتِبْدَادُ

سبألكم الله يا بنى الأحرعنى وعن أولادى الذين اتزعتموم
من بدى اتراعا أحوج ما كنت إليهم ، وسُقتوموم إلى ميادين
القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالاً لا شرف فيه ولا نفار ، حتى
ماتوا جميعاً موت الأذلاء ، الدنيا ، فلا أتم تركتموم بجاني
آنس بهم فى وحشتى ، وأجأ إلى معونتهم فى شيخوختى ، ولا
أتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدم
بأنهم ماتوا فداءً عن دينهم ووطنهم

فها أنذا عائش من بعدم وحدى فى هذا الغار الموحش فوق
هذه الصخرة المنقطعة أبكى عليهم ، وأسأل الله أن يلحقنى بهم ،
فنى يستجيب الله دعائى ،

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة
يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون
فنالت كلماته من نفس الأمير مالم ينل منها ضياع ملكه ،
وسقوط عرشه ، فصاح « ما هذا بشراً ، إنما هو صوت العدل
الالهى بُندرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضى فليصنع الله بى
ما يشاء فعدل منه كل ما صنع »

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله ورائه فسارت السفينة
بهم تشق عباب الماء شقاً فسجل التاريخ فى تلك الساعة أن قد

فكان لا يتنقى على الله من كل ما يتنقى امرؤ على ربه في حياته
 . إلا أن يرى غرناطة ساعةً من زمان يشفى بها غلة نفسه ثم ليصنع
 الدهر به بعد ذلك ما يشاء

وكان كلما تم بالذهاب إليها قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزاً
 من أهله مريضه ما كان يستطيع أن يتركها ولا يحد من يعتمد
 عليه في القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سبتة إلى
 شاطئ مَلَقَة ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكراً في ثوب طيب
 عرني من أطباء الأعشاب يتبفل^(١) في جبال الأندلس وسهولها
 حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل ، فوقف بجانب هضبة من
 هضاب جبل الثلج فرأى الأمواه نزلت عنه من جميع نواحيه في
 هدوء ، وسكون كأنها فوق سطح اللامع المتلألئ فيص من
 النور ، أوقبة من البلور ، حتى نصل إلى سفحه فإذا هي حبات
 ناعمة مذكورة تبعث ههنا وههنا لام لها إلا النجاة من بد
 مطاردها حتى تمر بجدول ماء في أرمها فتدغم فيه وتنساب
 في أحضانها

ثم التفت إلى المدينة مرأى على البعد أبراجها الحقيقية الحمراء ،
 وقبابها العالية السماء . وآياتها الأبهة في جوف السماء ، فوقف

(١) تبعل حرج لطلب القن

أمام هذا المنظر الجليل المهيّب موقف الخاشع المتخضّع وضم
إحدى يديه إلى الأخرى ووضعهما على صدره كأنما هو قائم
أمام المحراب يؤدي صلاته ، ولبث على ذلك برهة ثم صاح
بصوت عال رددته الغابات والحرّجات يقول

هذا ميراث آبائي وأجدادي لم يبقَ لي منه إلا وقفة بين يديه
كوقفة الناكّل المفجوع بين أيدي الاطلال البوالي ، والآثار الدوارس
هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم وهم لا مضاجع لهم إلا
رمال الصحراء وكُثبان الفلوات

هذه قصورهم تُطل على الأرض الفضاء من عيون نوافذها
كأنما ترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يشملوا
هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها إليها ونهارها إلى السموات
العلی تدعو الله أن يعبدوا إياها بناتها وحُماتها فلا يستجاب لها دعاء
في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا
يقيمون ، وعلى منفاف هذه الأنهار كانوا يندون ويروحون ،
واليوم لا غادٍ منهم ولا رائح ، ولا سائح تحت هذه السماء ولا بارح
ثم اطرأ إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ورأى
جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيمزقها بين يديه تمزيقا
فهاقت^(١) على نفسه وهو يقول

هكذا تدول الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل
الظلمات محل الأنوار . وتنتشر سحابة الموت على وجه الحياة
ثم توسد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء
السما فلم يستفق حتى مضت دولة الليل فشئى إلى نهر جارٍ في
سفع الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ثم انحدر إلى المدينة يفتش
عن خان يأوى إليه فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى
بلغ نهر شذيل فوقف على صفتته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب
وينتظر بقطة المدينة بعد هجرتها

فانه لو اوقف موقفه هذا إذ افتتح بين يديه باب قصر عظيم
وإذا فتاة اسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خماراً أسود
شفافاً وأرسلت على صدرها صليبا ذهبيا صغيراً ومشى وراءها
غلام يحمل على بده الكتاب المقدس فلمحت في مكانه فأدهشها
موقفه فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها فإذا الشمس
طلامة حسنا وهاء وقالت له بإسان عرى تخالطه لكنة أعجمية :
أعريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؛ قال نعم لقد نزلت به
الساعة فلم أعرف طريق الخان الذى يأوى إليه الغرباء ولم أجد
في طريقى من يدانى عليه ، فسمعت في صوته رنة الشرف ورأت
بين أعطافه غائل النعمة فأهما أمره وأشارت إليه أن يتبعها

لتدله على ما يريد ، فشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيتها
بإتسامة عذبة وقالت له : لاتنس أن تزورنى أيها الغريب كلما
عرضت لك حاجة : ثم مضت إلى كنيسها



كما أن السماء فى ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضىء
صفحتها ، وتتربها السهب فتلمع فى أرجائها ، حتى إذا طلعت
الشمس من مشرقها عاصفوها صوة جميع تلك النيرات ، كذلك
القلب الإنسانى لاتزال تترب به مختلفات العواطف وأشتات
الأهواء مجتمعة ومتفرقة حتى إذا أشرقت فيه شمس الحب غربت
بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء ،

فقد أصبح الأمير ينظر الى غرناطة منذ اليوم بعين غيرة
كان ينظر بها اليها من قبل ، ويرى فى وجهها صودة الأس بعد
الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت ، كبر نازحه ،
وبردت جوانحه ، وهدأت فى نفسه ثورة الغضب التى كانت
تشتعل بين جنبه انتعالا ، فكان اذا مر بسجد من تلك
المساجد التى استحال إلى كنائس استطاع أن يصف أمامه
هنية علة يرى الفتاة الاسبانية بين المداخلت إليه أو الخارجات
منه ، وإذا رأى الصليب مشرقا على رأس مثانه ذكرك ذلك

الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء فاعتفرت
منظر هذا لمنظر ذاك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في
أجواز الفضاء ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة
التي رآها فيها فأنس به وسكنت نفسه إليه

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا غم له إلا أن يمر
صبيحة كل يوم بصفة نهر سنيل غادبا أو راثما يقلب نظره في
أبواب العصور المشرفة على ذلك النهر علة يعرف قصر الفناء فلا
يعرفه ، وفي وجوه الغاديات والراثمات من الفتيات علة يراها
يأنهن فلا يراها ، حتى إذا بال منه الناس انكساراً راجعاً إلى مقبرة
آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعاً غزيراً
لا يعلم هل هي دموع الذكرى أو دموع الغرام



نكب الدهر فلوردا مند عامين نكبة لا تزال لو عنها متصلة
بها ، حر البوم ، فقد كان أبوها رئيس جميعه المعاصيه المقدسة
التي قامت في وجه الحكومة أعواماً طويلاً ، ثم بالها بالحرية الدينية
والسياسة ، ثم بالها بالحكومة على اختلاف مذهبها وأجناسها
حتى أنه رأى الحكومة أمرها فهدسوا لرئيسها من قتله غيلة
تحت سنان الظلام ، فزنت عليه ابنته وعلى أمها التي ماتت على

أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع غدواتها وروحاتها ،
فأصبحت وهي لم تسلُح الثامنة عشرة من عمرها تعيش في قصرها
عيش الزاهدين التبتلين ، فكان لا يراها الرائي إلا خارجة من
قصرها بالعداء أو عائدة إليه بالعشي لا يصحبها إلا غلامها ، أو
جالسة في محراب كنيسة تدعو الله وتبتهل إليه ، أو واقفة
على رسوم الدولة الماضية وآثارها تلب فيها نظر المظهِر والاعتبار ،
أو هائمة على وجهها في غابات غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار
الليل فتعود الى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى
سمّاها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة »

فانها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بني الأحمر إذ لحقت على البعد
فتى عرياً مكباً على قبر بين يديه كأنما بفيل صفائح أو ببيل تربته
بدهوعه فرأت له ومنتت إليه حتى دانت له فأحس بها فرفع رأسه
فمرقها ومرفقه . فقالت له : انك تبكي ملوكك بالألمس أبها الفنى
فابكم فقد جف تراب قبورهم لغلة من يبكي عليهم : قال أنرين
لهم ياسيدتى ! قلت أم لا أنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وابسه .
أحق بدهوع الباكين ، من العظماء الساقطين ، قال شكرا لك
باسيدتى فهذه أول ساعة شعرت فيها يبرد العزاء يدب في صدري
مذ وطئت قدامى أرضكم هذه ، قالت هل زرت قصورهم وآثارهم

التي تركوها وراءهم من بعدهم في هذه الديار ، فأطرق قليلاً ثم
رفع رأسه فإذا دمةٌ ترجع في مقلته وقال : لا ياسيدتي فقد
حاولت الدنو منها فطردني عنها اللوكاون بأبوابها كأنما كانوا يجهلون
أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم جميعه من هو أولى
بزيارتها مني : قالت أنمت^(١) الى أحد من أصحابها بنسب أو
رحم ، قال لا ياسيدتي ولكني عديم ومولام ، وصنيعة أيديهم ،
وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولا أعم ما حبيت ، قالت إن رأيتك
غداً في مثل هذا الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد
منها ، قال لئن فعلت لا يكونن^٢ امرؤ على وجه الأرض أشكر
لنعمتك مني ، غيظه وانصرفت ومضى هو إلى خانه بين صبابة
تقيمه وتعمده ، وأمل بميته ويحييه

وفت فلورندا لصديقها العربي بما وعدته فجاءته في اليوم الثاني
فأزارته بعض الآثام جاءت في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر
منها ، وهكذا ما زالوا يجتمعان كل يوم ويفترقان ويختلفان إلى
ما شاءا من الرسوم والآثار ولا ينكر الناس من أمرهما شيئاً فقد
كانوا يقولون إذا رأوها معاً . إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدي
الفتي العربي إلى دينها القويم . حتى استحال العطف الذي كانت

تضمّره له في نفسها مع الأيام إلى حبّ شديد ، وكذلك العطف دائماً طريق الحب ، أو هو الحب نفسه لا بساً ثوباً غير ثوبه ، إلا أن أحداً منهما لم يكشف صاحبه بما أضمره له في نفسه حتى جاء اليوم الذي عزّما فيه على زيارة قصر الجراء وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم



وقب الأمير أمام قصر الجراء فرأى سماءً تطاول السماء وطوداً بناطع الجوزاء ، وهضبة اشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبالاً تحسّر عن قته العيون . وفضل في جوانبه الظنون ، وحصناً تقاصر عنه يد الأيام . ونهاقت من حوله السنين والاعوام . ثم دخل فإذا ملك كبير ، وجنة وحرر ، وقباب نفى إليها النجوم بالأسرار ، وأبراج تنزاق عن سطوحها يد الأقدار ، ونحو من مفروشة ؛ لو ان الحبباء . كأنها الرياض الرهراء ، وجدران صفيلة ملساء ، تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرأة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لجة متلاطمة الأمواج ، يجسها عن الجريان لوح من رجاج ، فمشى يقب نظر العثا والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ، وينغم في نفسه بقول القائل :

وقفت بالجرا . مستعبداً . مقتبداً . أدباً أشد .

فقلت يا حمراء هل رجعة قلت وهل يرجع من ماتنا
فلم أول أبكى على رسمها هيهات يغني الدمع هيهاتنا
كأنما آثار من قد مضوا نوادب يندبن أمواتنا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صحنًا مفروشًا ببساط من
المرمر الأصفر قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوف من
الأعمدة النحاف الطوال وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات ،
تعلوها قباب مشرفات ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات
من أهل بيتهم ، فهاجت في نفسه الذكري وشعر أن صدره يحاول
أن ينشق عن قلبه حزنا ووجدًا وأحس بحاجة إلى البكاء . فاستحي
أن يبكي أمام فلورندا فتركها في مكانها لاهية عنه بالنظر إلى
بعض النقوش ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى دأبها فكان
أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها فما قرأه حتى
صاح صيحة شديدة قائلاً « واأبتاه » وسقط مغشيًا عليه ، فلم
يستفق إلا بعد ساعة طويلة ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر
فلورندا ووجد في عينيها آثار البكاء ، فقالت له لقد كنت أعلم
قبل اليوم أنك تكتمني شيئًا من أسرار نفسك والآن عرفت
أنك لست عبد بنى الأحمر ولا مولاهم كما تقول ولكنك أحد
أمراءهم وأنك الساعة في قصر جدك وأمام حجرة أبيك ، فما

أسوأ حظكم يا بني الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير
المسكين . فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره فأنشأ يقص
عليها قصته وقصة أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم مذجلوا عن
الأندلس حتى اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرة منكسرة
وقال لها : يا فلورندا ان جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر
بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأمام غداً : قالت وأمس شقاء
ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟ فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال :
إنني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقاً
لا لقاء بعده . قالت آتجبن أيها الأمير ؟ قال نعم حب الزهرة
الذابلة ، للقطرة الهاطلة ، قالت وهل تستطيع أن تحب فتاة
مسيحية لا تدين بدنياك ؟ قل نعم لأن طريق الدين في القلب ،
غير طريق الحب ، ولقد وجدتُ فيك الصفات التي أحبها
فأحببتك لها ، ثم لا شأن لي بعد ذلك في ما تعتقدين ، قالت وهل
تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ قال ولم لا يكون الحب نفسه أملاً
من الآمال التي نجد فيها السعادة اذا ظفّرنا بها ؟ ومنى كان للسعادة
في هذه الحياة نهاية محدودة فنأى إلا أن ننسك بحلقاتها حلقة
حلقة حتى نصل إلى نهايتها ،

وكان الليل قد أظلمها فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا

الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه فوضعت فلورندا يدها في يده
وقالت له « سأحبك كما أحببتني أيها الأمير ، وسيكون حبي
لك بلا أمل لحبك ، ولقد فرق الدين بين جسدينا ، فليجمع الحب
بين قلوبنا » وتركته وانصرفت

ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعيدا فيها بنعمة العيش سعادة
أنستهما جميع ما لقيتا في حياتهما الماضية من شقاء وعناء فأصبحتا
فوق أرض غرناطة ونحت سمائهما طائران جميلان يطيران حيث
يصفون لهما الجو وترقرق صفحة الهواء ، ويقعان حيث يطيب
لهما التنقير والتنقير

فليت الدهر بنام عنهما ويتركهما وشأنهما ولا ينفس عليهما
هذه الساعات القليلة من السعادة التي اشتريها منه بكثير من
دموعهما وآلامهما والتي لا يملكان من سعادات الحياة سواها
فإن خسرها خسر كل شيء

بينما جالسان دات يوم على صفة جدول من جداول عين
الدمع إذ مرّ بهما « الدون رودريك » ابن حاكم مدينة غرناطة
فراهما في مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى فلورندا
قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أياما يتجسس اليها ويدعوها
إلى الزواج منه فأبت أن تُصنى إليه وقالت له « إني لا أتزوج

ابن قاتل أبي ، فانصرف بلوعة لا تزال كامنة في نفسه حتى اليوم ، فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم في نفسه انها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحت من قبل لذلك الفقى العربى الجميل الذى يحالسها ، فذهب إلى قصرها فى اليوم الثانى ليفضى إليها بما فام فى نفسه فأبت أن تقابله فخرج غاضباً ساخطاً يحدث نفسه بأفظم أنواع الانتقام

وماهى إلا أيام فلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف ابن أبى عبد الله سليل بنى الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسى مجدها وعظمتها ، وبُناة قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليلاً مهانئاً إلى محكمة التفتيش ^(١) منهما بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها وهى عندهم أفظم الجرائم وأهولها

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمته فأنكرها فلم يحفل بإنكاره وقال له لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ، فطار الغضب فى دماغه وصرخ صرخة دوت بها أرجاء القاعة وقال

(١) استحدثت هذه المحكمة أساساً على أثر حلا العرب سباً تفسير المسلمين واليهود الناصب ، فيها مراعاة لكرامة وطائع كبير مشهورة

في أي كتاب من كتبكم تجدون

أينما كنتم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بآياتكم
ولا يقولون بحولكم

من أي عالم من عوالم الأرض أتيتم بهذه العقول التي تظنون
بها أن القلوب تساق إلى الإيمان سواقا، وإن العقائد قسقت للناس
كما يسقى الماء والحر

أين العهد الذي أخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم
هذه البلاد أن تكونوا أحراراً في عقائدنا وأعمالنا وأن لا تؤذونا
في عاطفة من عواطف نفوسنا، ولا في شعيرة من شعائر ديننا؟
أهذا الذي تصنعون في اليوم والذي صنعتكم بالمسلمين بالأمس
هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعى للذمم

لكم أن تفعلوا ما تشاؤون فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم
أصحاب القوة والسلطان فيها والسلطان عزة لا تبالى بعهد ولا وفاء
إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيف
قاطع في يد الأولين، وغُلّ ملتف على أعناق الآخرين، فلا أقل
الله عثرة البلهاء، ولا أقرّ عيون الأغبياء

أنتم أقوياء ونحن ضعفاء، فأنتم أصحاب الحق الأبلغ والحجة
القائمة، فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذي خولتكم إياه قوتكم

اسفكوا من دماثنا ما شتم، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم
واملكوا علينا عقولنا وقلوبنا حتى لا ندين الآبما تدينون، ولا
نذهب الآ حيث تذهبون، فنندعجزنا عن أن نكون أقوياء،
فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء

ثم حاول الاستمرار في حديثه مقاطعه الرئيس وأمر أن
يساق الى ساحة الموت التي هلك فيها من قبله عشرة آلاف من
المسلمين قتلاً أو حرقاً فسيق اليها واجتمع الناس حول مصرعه
رجالاً ونساءً، وما جرد الجلاد سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس
صرخة امرأة بين الصفوف فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها، وما هي
الا غمضة وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل



يرى المارّ اليوم بجانب مقبرة بنى الأحمر في ظاهر غرناطة
قبراً جميلاً مزخرفاً هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافي
قد نُحِتَتْ في سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر فيهوى اليها
الطير في أيام الصيف الحارة فيشرب منها وتُقشَّت على ضلع من
أضلاعها هذه السطور

« هذا قبر آخر بنى الأحمر »

« من صدقته الوفية بعهدته حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

الهاوية

« موضوع »

ما أكثر أيام الحياة وما أقفلها ؛
لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم
إلا عاماً واحداً مرّ بي كما يمرّ النجم الدهرى في سماء الدنيا ليلة
واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك
قضيت السطر الأول من حياتي أفتس عن صديق ينظر الى
أصدفائه بعين غير العين التي بنظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع
إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت فلاناً منذ ثمانى عشرة
عاماً فعرفت أمراً ما سمعت أن أرى خلة من خلال الخير
والمعروف في يباب رجل إلا وجدت فيها ولا تخيلت صورة من
صور الكمال الانساني في وجه إنسان إلا أضاع لي في وجهه
فجلت مكانه عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله
وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى

عرض لي من حوادث الدهر ما أزعجني عن مستقرى فهجرت
 القاهرة إلى مسقط رأسي غير آسف على شيء فيها إلا على فراق
 ذلك الصديق الكريم فتراسلنا برهة من الزمان ثم قترت عني
 كتبه ثم انقطعت فخرت لذلك حزناً شديداً وذهبت إلى الطنونا
 في شأنه كل مذهب إلا مذهباً واحداً وهو الشك في صدقه
 ووفائه، وكنت كلما هممت بالمعير إليه لتعرف حاله قعدتني عن
 ذلك ثم كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي فلم أعد إلى
 مصر إلا بعد سبعة أعوام فكان أول هي يوم هبطت أرضها أن
 أراه فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا
 تزال حسرة متصلة بقلبي حتى اليوم

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان
 نراى فيه السعادة في ألوانها المختلفة وتترق وجوه ساكنيه
 بشراً وسروراً ثم زرته اليوم فحيل إلى أنى أمام مقبرة مظلمة
 ساكنة لا يهنف فيها صوت ولا يراى في جوانبها شخص
 ولا يلمع في أرجائها مصباح فظننت أنى أخطأت المنزل الذى
 أريده أو أنى بين بدى منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل
 صغير ولحت في بعض النوافذ نوراً ضئيفاً فمشيت إلى الباب
 فطرقته فلم يجبنى أحد فطرقته أخرى فلمحت من خصاصه^(١)

نوراً مضطرباً ثم لم يلبث أن انفرج لى عن وجه غلام صغير فى
. اسمال بالية يحمل فى يده مصباحاً ضئيلاً فنأملتته على ضوء المصباح
فرايت فى وجهه صورة أبيه فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل
الذى كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن
أبيه فأشار إلى بالدخول ومشى أمامى بمصباحه حتى وصل بى
الى قاعة مغبرة شعناء بالية للمقاعد والأستار لولا نقوش أعرفها
من قبل لاحت لى فى بعض جدرانها كبا فى الوشم فى ظاهر اليد
ما عرفت أنها القاعة التى قضينا فيها ليالى السعادة والهناء اثنى
عشر هلالاً ، ثم جرى يابى وبينه حديث قصير عرف فيه من
أنا وعرفت منه أن أباه لم يعد الى المنزل حتى الساعة وأنه عائد
عماً قليل ، ثم تركنى ومضى وما لبث إلا قليلاً حتى عاد بقول لى :
إن والدته تريد أن تحدثنى حديثاً يتعلق بأبيه ، تخفق قلبى خفقة
الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف ما تاءه (١) ثم التفت
فاذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب خيتى خيتها
ثم قالت لى : هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ، قلت
لا فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقه سبعة أعوام ،
فالت ليتك لم تفارقه فقد كنت عصمةً للرجل فيه وحى له من

كل سوء فما هو إلا أن فارقتَه حتى أحاطت به زمرة من زُمر
الشیطان وكان فنى كما تعلمه غريباً فما زالت تغريه بالشر وترخرفه
له حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذى تراه ، قلت
وأى شر تريدین یا سیدتى ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟
قالت سأقص عليك كل شىء فاستمع لما أقول

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعلمت
حباله بحباله وأصبح من خاصنه الذين لا يفارقون مجلسه حيث
كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه فى غدواته وروحاته فقد استحال
من ذلك اليوم أمره وتنكرت صورة أخلاقه وأصبح منقطعاً عن
أهله وأولاده لا يراهم الا فى الفينة بعد الفينة ^(١) وعن منزله
لا يزوره الا فى أخريات الليال ، ولقد اغتبطت فى مبدأ الأمر
بتلك الخطوة التى نالها عند ذلك الرجل والمنزلة التى نزلها من نفسه
ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة فى سبيل ذلك ما كنت
أشعر به من الوحشة والألم لا تقطاعه عنى وإغفاله النظر فى شأن
يئته وشؤون أولاده حتى عاد فى ليلة من الليالى شاكياً متألماً
يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منه فشعنت من فمه
رائحة الخمر فعلمت كل شىء

علمت أن ذلك الرئيس العظيم الذي هو قدوة مرؤوسيه في الخير أن سلك طريق الخير وفي الشر إن سلك طريق الشر قد قاد زوجي القتي الضعيف المسكين إلى شر الطريقتين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وأنه ما كان يتخذه صديقاً كما كنت أظن بل كان يتخذه نديماً ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه وسكنت بين يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سيداً بين أهله وأولاده فأجدت عليه شيئاً ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب فلم أعجب لذلك لأنني أعلم أن طريق الشر واحدة فن وقف على رأسها لا بد له من أن يحدرفها حتى يصل إلى نهايتها ، فاصبح ذلك القتي النبيل الشريف الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشم فيه رائحة الشراب ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يحاس فيه قوم شاربون ، سكيراً مقامراً مستهتراً في الحالتين لا يتجمل ولا يتستر ولا يتقى عاراً ولا مأثماً ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذي كان يعن بأولاده أن يعلق بهم الذر ، وبزوجته أن يتجهم^(١) لها وجه السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً يضرب أولاده كلما دنوا منه ويشتم زوجته

(١) نعمهم له استقبله بوجه كريمة

ويتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه
 وشرفه لا يبالي أن يعود الى المنزل في بعض الليالي في جمع من
 عُشَّرائِه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا^(١)
 وأولادى فيجلسون في بعض غرفها ولا يزالون يشربون
 ويقصفون^(٢) حتى يذهب بمقولهم الشراب فيحتاجون ويرقصون
 ويملاؤن الجوصراخا وهتافاً ثم يتعادون^(٣) بعضهم وراء بعض في
 الأبهاء^(٤) والحجرات حتى يلجأ على باب غرفتى وربما حرق بعضهم
 في وجهى أو حاول تزع خمارى على سرأى منه^(٥) ومسمع فلا
 يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ، فأفر من بين أيديهم من مكان
 إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ولا
 خمار غير إزار الظلام وخماره حتى أصل الى بيت امرأة من جارائى
 فأقضى عندها بقية الليل

وهنا تغيرت نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث هنيهة
 وأطرفت برأسها فعلمت أنها تبكى فبكيت لبكاها يبنى وبين
 نفسى ثم رفعت رأسها وعادت إلى حديثها تقول
 وماهى إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان فى بده من

(١) نصف الرجل أهله في أكل وشراب وهو

(٢) من العدو وهو المرمى

(٣) الانهاء جمع - وهو البيت المعبود اما لدوت

المال فكان لا بدّ له أن يستدين ففعل فأثقله الدين فرهن فمجز
عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ولم يبق
في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى
راتبه لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ثم هو بعد ذلك ملك
الدائنين ، أو غنيمة المقاصرين

هذا ما صنعت يد الدهر به أما ما صنعت بي وبأولادي فقد
صرّ على آخر حليه بعثها من حلاى عام كامل وهامى حوانيت
الرايين والمسترهين ملاى بلباسى وأدوات بنى وآتاه ولولا
رجل من ذوى قرباى رقيق الحال ^(١) يعود على من حين الى حين
بالنذر العلل مما يسئل من أشداى عياله لملكت وهلك أولادى جوعا
فلملك تستطيع يا سيدى أن تكون عوناً لى على هذا الرجل
المسكين منقده من شقائى وبلائى بما ترى له فى ذلك من الرأى
الصالح وأحسب أنك قدر منه للمنزلة الى منزله من نفسه على
ما عجز عنه الناس جميعاً فانك إن فعلت أحسنت إليه وإلينا
إحساناً لا ننسى بدك فيه حتى الموت

ثم حينئذى ومضت لسبيلها فسألت الفلام عن الساعة التى
أستطيع أن أرى أباه فيها فى المنزل فقال إنك تراه فى الصباح

قبل ذهابه إلى الديوان فانصرفتُ لشأني وقد أضمرتُ بين جنبي
لوعة ما زالت تقيمنى وتعدنى وتذود عن عيني سنة الكرى
حتى اتقضى الليل وما كاد ينقضى

ثم عدت في صباح اليوم الثانى لأرى ذلك الصديق العديم
الذى كنت بالأمس أسعد الناس به ولا أعلم ما مصير أمرى
معه غداً وفى تنسى من القلق والاضطراب ما يكون فى نفس
الذاهب إلى ميدان سباق قد راهن فيه بجميع ما يملك فهو لا يعلم
أىكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم



الآن عرفتُ أن الوجوه مرآيا^(١) النفوس تضىء بضياؤها
وتظلم بظلامها ، فقد فارقت الرجل منذ سبع سنين فأستنى الأيام
صورته ولم يبق فى ذاكرتى منها إلا ذلك الضياء اللامع ضياء
الفضيلة والشرف الذى كان يتلأل فوقها تتلألؤ نور الشمس فوق
صفحتها فلما رأيته الآن ولم أر أمام عني تلك الغلالة البيضاء من
الضياء خيل إلى أنى أرى صورة غير الصورة الماضية ورجلاً غير
الذى أعرفه من قبل

لم أر أمامى ذلك الهى الجميل الوضاح الذى كان كل منبت

(١) المرآة جمع مرآة

شعرة في وجهه فمأضاحكاً تنوح فيه ابتسامة لامة بل رأيت مكانه رجلاً ثقيلاً منكوباً قد لبس الهرم قبل أو انه وأوفى على الستين قبل أن يسلم الثلاثين فاسترخى حاجباه وثلث أجنانه وجمدت نظراته وتهدل عارضاه وتجمد جبينه واستشرف^(١) عاتقه وهوى رأسه بينهما هوية بين عاتق الأحب فكان أول كلمة نلتها له لقد تبيّر فيك كل شيء، يا صديقي حتى صورتك، وكأنا ألم بما في نفسي وعلم اني قد علمت من أمره كل شيء، فأعرق برأسه أطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظاهرها ولم يقل شيئاً، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه وقلت له

والله ما أدري ماذا أقول لك ، أأعظك وقد كنت واءظي بالأمس ونجم هداى الذى أستنير به في ظلمات حياتي ، أم أدلك على ما أوجب الله عليك في نفسك وفي أهلك ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ولا تصل يدي الى عبرة تقصر يدك عن نيلها ، أم أسترحك لأطفالك الضمفاء وزوجتك البائسة للمسكينة التى لا عضد لها في الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلوب الرحيم الذى طالما خفق رحمة بالعمداء ، فأحرى أن يحقق رحمة بالأقرباء إن هذه الحياة التى تحياها يا سيدى إنما يلجأ اليها المهمل

العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروا فيها عن
أعين الناس حياةً وخجلاً حتى يأتهم الموت فيخلصهم من عارهم
وشقائهم وما أنت بواحد منهم

انك تمشى يا سيدى فى طريق القبر وما أنت بناقم على الدنيا
ولا متبرم بها^(١) فما رغبتك فى الخروج منها خروج اليأس المنتحر؟
عذرتك لو أن ما ربحت فى حياتك الثانية يقوم لديك مقام
ما خسرت من حياتك الأولى، ولكنك تعلم أنك كنت غنياً
فأصبحت فقيراً، وصحيحاً فأصبحت سقيماً، وشريفاً فأصبحت
وضيعاً، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلّت رُقعة
الأرض من الأشقياء

إن كان كل ما يعينك من حياتك هذه أن تطلب فيها
الموت فأطلبه فى جرعة سم تشربها دفعة واحدة فذلك خير لك
من هذا الموت المتقطع الذى يكثر فيه عذابك وألمك، وتعظم
فيه آثامك وجرائمك، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما
يعاقبك على الأولى

حسبنا يا صديق من الشقاء فى هذه الحياة ما يأتينا به القدر
فلا نضم إليه شقاءً جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا فهات يدك

وما هدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس فقد
كنّا سعداء قبل أن نفترق ثم افترقنا فشقينا ، وما نحن قد التقينا
فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنّا

ثم مددت يدي إليه فراعني أنه لم يحرك يده فقلت له مالك
لا تمد يدك إلي ، فاستعبر بأكياً وقال لأنني لا أحب أن أكون
كاذباً ولا حائناً ، قلت وما يمنعك من الوفاء ، قال بمنى منه اني
رجل نقي لا حظ لي في سمادة السعداء ، قلت قد استطعت
بالأمس أن يكون سقياً فلم لا تستطيع اليوم أن يكون
سعيداً ، قال لأن السعادة سماء والشقاء أرض والهبوط إلى
الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن رأس
الهوة فلا حيلة لي في الاستمسك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت
أول جرعة من جرعات كأس الحياة المريرة فلا بد لي أن أشرها
حتى نالها . ولا شيء تقف في سبيل إلا شيء واحد فقط ،
وهو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ،
قلت ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت
من الناجين ، قال إن العزيمة أثر من آثار الإرادة وقد أصبحت
رجلاً مغلوباً على أمري لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي
والقضاء يصنع بي ما يشاء وابك على صديقك القديم منذ اليوم

ان كنت لا ترى بأساً في البكاء على السافطين المدينين
ثم اتعجب باكيًا بصوت عال وتركني في مكاني دون أن
يبيدي بكلمة واحدة وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ،
فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم



لم يستطع رئيس الديوان أن يحامل نديمه بالأمس زمناً
طويلاً فأقصاه عن مجلسه استقلالاً له ، ثم عزله من وظيفته
استنكاراً لعماله ، ولم تذرف عينه دمعاً واحدة على منظر صريعه
الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه
مالكه القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه فلجأ هو
وزوجته وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور
فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ،
فإن رأيته ذاهباً تواري عن عيني حياةً وخجلاً وإن رأيته عائداً
دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن
جبينه ما سال منه من الدم ثم قدته إلى يتيته

وهكذا ما زالت الأيام والأعوام نأخذ من جسم الرجل
ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو
حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مشية الناهل المشدوه

لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقى ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضره وليس في يده شيء يضع ، أو يقاب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الخروق والرفع ، وينظر الى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بماتته فدفعهم عنه يده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرق عن طاقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الحر وهدأت سورتها في رأسه انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب وتزيد حتى يعود إلى ما كان عليه ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية :



عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاهما أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما فلم تر لهما بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها وبقيتاتهما فكانت لا تراهما بعد ذلك إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل عنه فيها عون الشرطة وقلمها تغفل عنه ،

فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة
عجوز تختلف اليها من حين إلى حين فإذا فارقها جارتها وخلت
بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تنقلب فيها في
أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج محب كريم وأولاد
كالكوكب الزهر حسنا وضيء ثم تذكر كيف أصبح السيد
مسوداً والمخدوم خادماً والعزيز الكريم ذليلاً مهاناً وكيف انتثر
ذلك المقد اللؤلؤ المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر
ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات ملقيات على سطح الغبراء
تطوها الحال وتدوسها الحوافر والأقدام فتبكي بكاء الواله في أثر
قوم ظاعنين حتى تلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط
في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقاؤها وشقاء ولديها
ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمفاضلته أو مفارقتها لأنها امرأة
شريفة والمرأة الشريفة لا تفدر بزوجه المنكوب ، بل كانت
نظر إليه نظراً الأم الحنوز إلى طفلها الصغير فقرحه وتعطف
عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، ونأسو جراحه إن عاد جريحاً ،
وربما طرده الحمار في بعض لياليه من حانته إن لم يجد معه ثمن
الشراب فيعود إلى يته هائجاً مائراً يطلب الشراب طلباً شديداً
فلا تجد لها بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تتنازع له من الخمر

ما تسكن به نفسه رحمة به وابقاء على تلك البقية الباقية من عقله
وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الاثقال حتى
أضاف اليها نقلاً جديداً فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة
تحرك في أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأق إلى دار الشقاء
بشقي جديد ففتفت صارخة : رحماك اللهم فقد امتلأت الكأس
حتى ما تسع قطرة واحدة ، وما زالت تكابد من آلام الحمل ما
يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها
فلم يحضرها أحد إلا جارتها المعجوز فأعانها الله على أمرها
فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفس مرضاً شديداً فلم تجد
طبيباً يتصدق عليها بعلاجها لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه
أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم القاتل لا يمكن
أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو
منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها في ساعة
لا يوجد فيها بجانبها غير طفلها الصغيرة عالقة بشديها

في هذه الساعة دخل الرجل ثاراً محتاجاً يطلب الشراب
ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد فدار بعينيه في أنحاء
الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكي بجانبها
فظنها مائة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً

شديداً فلم يشعر بحركة فراه الأمر وأحس برعدة تمشي في أعضائه حتى ملأت قلبه وبدأ صوابه يعود اليه شيئاً فشيئاً فأكب عليها يحرق في وجهها تحديقاً شديداً ويدنو منها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت ينظر إليه بعينها الشاخصتين الجامدتين فراجع خوفاً وذعراً فوطئ في تراجعه صدر ابنته فانت أنه مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال وا شقاآه وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعمد والجدران ويدفع كل ما يجده في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح ابنتي زوجتي ! هلموا إلي ! أدركوني ! حتى أعيأ فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويثني أنين الذبيح والناس من حوله ييكونه لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقاآه

كذلك كانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من فاعات بیمارستان ، فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريمة ولأولاده المشردين البؤساء ، ووا أسفا عليه وعليهم جميعاً حتى الموت

الجزء

« مترجمة »

جَلَسَتْ على صفة البحيرة لتملأ جرتها وكان الماء ساكناً هادئاً
كأنما قد امتدت فوق سطحها طبقة لامية من الجليد فعزَّ عليها
أن تكسر يدها هذه المرأة الناعمة الصقيلة ولا أحبَّ إلى المرأة
من المرأة فظلت تقلب نظرها فيها فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض
رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً فابتسمت له فابتسم لها فعلمت
أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل

أُتِيت بهذا المنظر ساعة ثم راعها أن رأت بجانب خيالها
في الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا هو خيال رجلٍ قد عرت ولكنها
لم تلتفت ومدت يدها إلى الماء فلأت جرتها ثم نهضت لتحملها
فتقدم إليها ذلك الواقف وراها وقال لها: هل تأذنين لي
يا سيدتي أن أعينك على حمل جرتك ، فالتفتت إليه فإذا قى
حضرى غريب حسن الصورة والبزة لا تعرفه ولا تعرف أن

هذه الأرض مما تبت مثله فراها أمره وأنقد وجهها حياء وخجلاً
ولم تقل شيئاً واستقلت جرتها ومضت في سبيلها



نشأت سوزان وابن عمها - لمبرت في بيت واحد كما تنشأ
الزهرتان المتماقتان في مغرس واحد فرضعت معه وليدة ، لعبت
معه طفلة وأحبته فاه وصرت بهما في جميع تلك الأدوار سعادة
لم يستهداها من القصور والبساتين ، والأرائك والأسره ،
والمركبات والخياد ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والميدان ،
والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والغلائل
المرصعة ، لأنهما كانا قرويين فقيرين ، بل من مطلع الشمس
ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، ولؤلؤ السماء بنجومها الزاهرة ،
والأرض بأعشابها الناضرة ، ووقوف فوق الصخور المائسة ،
على ضفاف البحيرة الهادئة ، وجلساب على الأعشاب الناعمة ،
تحت ظلال الأشجار الوارفة ، وسماع أناتسد الحداد ، وأغاني
الرعاة ، وضوضاء السائفة في غدوها ورواحها ، وبكاء النواير^(١)
في مسائها وصباحها ، بل من الحب الطاهر الشريف الذي يشرق
على القلوب الحزينة فيسعددها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ،

(١) النواير جمع ماعودة وهي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر (الساية)

والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذى هو الغزاء الوحيد عن كل
فأنت فى هذه الحياة والسلى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا
شأنها وشأنه حتى كان يوم البحيرة



لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا فى عيون الرجال وقلوبهم ،
فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا
الضلوع من خوافق القلوب ، لأصبح الوجود والعدم فى نظرها
سواء ، ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لحت فى كوكب
من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت فى زاوية من زوايا الأرض
أنه وجد ، لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملاً قلبها غبطة وسروراً
فقد عادت الفتاة إلى يتها طيبة النفس قريرة العين مزهوة
مختالة لا لأن حباً جديداً حل فى قلبها محل الحب القديم ، ولا
لأن نفسها حدثها أن تصل حياتها بحياة أحد غير خطيبها ، بل
لأنها وجدت فى طريقها برهاناً جديداً على جمالها فأعجبها ،
فكانت لا تزال تخلف بمد ذلك يجرها إلى البحيرة غير خائفة
ولا مرتابة ترى ذلك السيد الحضرى فى غدوها أو فى رواحها
يحسبها أو يبتسم لها ، أو يسألها عن طريق ، أو يستقيها جرة
ماء ، أو يقدم إليها زهرة جميلة ، أو يلقي فى أذنها كلمة عذبة ، حتى

استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل
صخرة منفردة فكانت هذه اللحظة آخر عهدا بحياتها القديمة ،
وأول عهدا بحياتها الجديدة



هبط المركيز جوستاف رويستان هذه الأرض منذ أيام لنفقد
مزارعه فيها وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فيقضى
في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة
أيام ثم يعود إلى بلدته « نيس » حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة
في بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلها حسنها وما زال بها
بفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره ، وعلى جيدها
ومعصمها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياه الحضريه
في أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيها الأمانى الكبار في حاضرها
ومستقبلها ، حتى أذغت واستقادت وخضمت للى نخضع لها
كل أنثى نامت عنها عين راعبها وأسلمها حظها الى أنياب الدثاب



استبقت الفتى جلبرت في الساعة التي يسدقظ فيها من صباح
كل يوم فعمد إلى بقرته فخل عقالها ثم هتف باسم سوزان
يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه فصعد إلى غرفتها

في سطح المنزل ليوقفها فلم يجدها فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم فظن أنها خرجت لبعض شأنها ثم تعود فلبث ينتظرها وقتاً طويلاً فلم تعد فرا به الأمر وأعاد البقرة إلى معتقلها وخرج يفتش عنها في كل مكان ويسأل عنها الناس جميعاً غاديتهم ورائتهم فلم يجد من يدلّه عليها حتى أظله الليل فعاد حزناً مكتئباً لا يرى أن أحداً على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابضة في كسر البيت مطرقة برأسها إلى الأرض تغلى التراب يعود في يدها فدنا منها فرفعت رأسها إليه وقالت له : أين كنت يا جلبوت ، قال فتشت عن سوزان في كل مكان فلم أجدها ، فألقت عليه نظرة مملوءة حزناً ودموعاً وقالت له : خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم ، فانتفض انتفاضة شديدة وقال لماذا ، قالت قد دخلت على الساعة جارتنا فلانة فحدثني أنها ما زالت تراها منذ ليالٍ تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضري غريب عن هذه المدرة أحسبه المريكز جوستاف رويستان صاحب هذه المزارع التي تلينا والقصر الأحمر الذي يليها وقالت أنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراه على فرس أشهب يعدو بهما في طريق القصر الأحمر عدواً شديداً ولا بد أنها فرّت معه ، فصرخ جلبوت صرخة عظيمة جاءت لها

نفسه أو كادت وخرّ في مكانه صَعِقًا ، فلم تزل أمه جايبة يجانبه الليل كله تبكي عليه مرة وتمسح جبينه بالماء أخرى حتى استفاق في مطلع الفجر فنظر حوله نظرة حائرة فرأى أمه مُكَبَّةً على وجهها تبكي وتنتحب مذكر كل شيء ، فأطرق هنيئة ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها وسألها ما بكَ يا أمّاه ، قالت أبكي عليك يا بني وعايها ، قال إن كنت باكية فبك على غيري ، أما أنا لمسح بجزين ولا بالك على ما فاتني ، فدكت أحبت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحال قلبها فاستحل قلبي ، فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ، ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه وفام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده



لقد كذبت المسكين نفسه فانه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ولكنها المصيبة التي يفضيها الحب المهجور تُخيل إليه أنه قد نقض يده من الحب أشد ما يكون به عالقًا ، فانه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمه في سرعاها حتى رأى كوكب الشمس بتناهض من مطلع قليلًا قليلًا ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات فتثير ظلامها ، وتجلو صفحاتها ، وتفرق ما بين خضراتها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة

المتلألئة أمام هذا الكوكب المنير ودار بنظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه فلمح في الأفق الغربي بارقاً يخطف البصر بلألانه فخل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمساً كتلك التي أطلما المشرق حتى تبينه فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابته أشعة الشمس فيما تعابت من الكائنات فيلتمع التماعاً شديداً فاسترد بصرة إليه سريعاً ووضع يده على يسرى أضالعه كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار لأنه علم أن ذلك البارق الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر

هنا علم أن نفسه قد كذبت فيما حدثته وأن تلك البارقة التي كانت تضيء ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضمًا وتمشي في نفسه مشى الموت في الحياة فأطلق لغيرته سبيلها وأشأ يأن أيتها عزناً تُرده الرياح في جوها، والأمواج في بحرها، والأعشاب في منارسها، والسائمة في مرابضها، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة تدنو منه فكف عبرته وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن يذهب

وهكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم فقد ذهب مع الحزن إلى أبعد مذاهبه حتى نال منه ما لم ينل كره الفداة ومروء

العشى ، فأصبح من يراه يرى رجلاً يائساً منكوباً مشرد العقل ،
 مشترك اللب ، مذهباً به كل مذهب ، يهيم على وجهه آفاء الليل
 وأطراف النهار بين الغابات والخرجات ، وفوق صنفاف الأنهار ،
 وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحش أنس العشير بعشيرته ،
 ويفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد
 للناهل مع الطباء واليعافير^(١) ثم يصدر إذا صدرت معها ، وربما
 ترمى به السير أحياناً إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر
 فإذا رأى أبراجه بين يديه دُعر دُعرًا شديدًا كأن بارقة من
 بوارق الصواب تلمع في تلك الساعة في رأسه وصاح صيحة
 عظيمة وانكفأ راجعاً إلى قريته لا يلوى على شيء ، وكثيراً ما
 قضت أمه اليوم كله حاملة على يدها الطعام تفتش عنه في كل
 مكان حتى تراه ملق بين الأحجار على صفة نهر أو في سفح جبل
 فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ثم ترفع يديها
 إلى السماء صارعة متخشعة تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد
 إليها وحيدها ثم تعود أدراجها



مضى الليل إلا أقله وسوزان جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة

(١) اليعافير جمع يعفور وهو الطي بلون التراب

على النهر نلتفت إلى سرير ابنتها صرّة وتقلب وجهها في السماء
أخرى وكان القمر في ليلة تمه فظلت تناجيه وتقول

أيها القمر السارى في كبد السماء هاأنذا أراك في ليلة تمامك
وحدى للمرّة الرابعة والعشرين فهل يمود إلى خطيبي جوستاف
فيرالك معى كما كان يفعل من قبل ؟

لقد كنت لى أيها الكوكب المنير نعم المين في ليالى
للموحشة على هموى وأحزاني فهل تستطيع أن تحدثني عن
جوستاف أين مكاه ومتى يمود وهل نلتقي فتم بذلك يدك عندي ،
حدثني عنه هل يذكرني كما أذكره وهل يحفظ عهدي كما
أحفظ عهده وهل يجلس إليك حيناً فيسألك عنى كما أسألك
عنه ، فإن فعل فقل له إن ابنته جميلة جداً جمال الابتسامة الحائرة
في فم الحسناء ، وبيضاء يياض القطرة الصافية ، فوق الزنبقة
الناصعة ، تحت الأشعة الساطعة ، وقل له إنها لا تهتف باسم غير
اسمه ، ولا تبسم لرسم غير رسمه ، وإنه ان رآها أغتته رؤيتها عن
المرآة المجلوة لأنه يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدُميتان
المصبوبتان في قالب واحد

ولم تزل تناجى القمر بمثل هذا النجاء حتى رأته يُخدر إلى
مغربه فودعته وداعاً جميلاً وقالت : الى الغديار فيقى العزيز ، ثم قامت

إلى سرير ابنتها فحنت عليها برفق وقبلتها في جبينها قبلة المساء
 وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عيّنت يحفنها السينة
 الأولى من الزوم حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانها وآمالها فرأت
 كأن جوستاف قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابنتها على باب
 القصر فنزل من مركبته وضمهما معاً إلى صدره ضمّاً سديداً وظلّ
 يقبلهما ويكي فرحاً وسروراً

فإنها لمستغربة في حلمها هذا إذ شعرت يدها تحركها فالتفت
 فإذا صدر النهار قد علا وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة
 متطابقة تقول لها : بشارك ياسيدتي فقد حضر سيدي ،
 فاستطيرت فرحاً وسروراً وقالت : أحمدك اللهم فقد صدقت
 أحلامي ، وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ثم دخلت
 عليه في غرفه باسمته متهالة تحمل ابنتها على يدها فرائته واقفاً في
 وسط الغرفة متكئاً على كرسي بين يديه فهرعت إليه ولكنها ما
 دنت منه حتى تراجع حائرة مشدوهة لأنها رأت أمامها رجلاً
 لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، بل هو بعينه ولكنها رأت وجهاً
 صامتاً متحجراً لا تلمع فيه بارقة ابتسام ولا تجرى فيه قطرة
 بتأني فأنكرته إلا أنها تناسك قليلاً ومدت إليه يدها تحييه
 فد إليها يده بتدافل وهور كأنما ينقلها من مكانها قهلاً ولم يلق

على وجه الطفلة وكانت تبسم اليه وتعد نحوه ذراعها نظرة واحدة ، وكانت أول كلمة قالها لها : أباقيّة أنت في القصر حتى اليوم ؟ فازدادت دهشة وحيرة ولم تفهم ماذا يريد وقالت له : وأين كنت تريد أن تراني ياسيدي ، قال في هذا القصر كما تركتُكِ ولكنني أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم ، قالت ولماذا ؟ قال لأن زوجتي قادمة اليه اليوم وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعمه وجودها

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في عروقها من الدم قد تراجع كله دفعة واحدة الى قلبها فأصبح وحده الواجب^(١) الخفاق من دون أعضائها وأوصالها جميعاً ، ولكن المصيبة اذا عظمت جلّت عن البكاء والأين فلم تصح ولم تضطرب بل نظرت اليه نظرة طويلة هادئة ثم التفتت الى ابنتها وقالت له : وماذا ترى في ابنتك هذه ؟ قال ليس لي ابنة أينها الفتاه ولا ولد لأنني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام نخذي ابنتك معك وعيشي معها حيث تشائين ، وقد تركتُ لك هذا المال على هذه المنضدة نخذيه واستعيني به على عيشك وتركها ومضى ، فلم نلق على المنضدة نظرة واحدة ومشيت نحامل على نفسها حتى وصلت الى غرفتها ، وهناك انفجرت باكية

وقالت : واسوأناه انه يعطيني ثمن عرضي . وسقطت مغشياً عليها ، فلم تستفق حتى أظلم الليل ففتحت عينها فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي الخادمة وإذا الخادمة تبكي لبكائها فضمتها إلى صدرها ساعة ثم قامت إلى غرفة ملابسها وأخذت تقفش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام وكانت تحفيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً فخامت أثوابها ولبستها ولم تبق في معصمها ولا في جيدها أو ثاؤة ولا جوهرة إلا ألقت بها تحت أقدامها واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح في مشيتها كأنما تمشي على رملة ميثاء ^(١)

وما تجاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في حلمها هي وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها حتى لحقت على البعد مركبة فخمة مقبلة على القصر تحمل المركيز وامرأة يمانية فأغمضت عينها وأسالت تحت جدار القصر ومضت في سبيلها .



لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبها في تلك الساعة من هموم وأحزان فقد خرجت مطرودة من القصر الذي كانت تظن نفسها منذ ساعات صاحبتة ، وتولى طردها

من كانت تزعم في نفسها انها أحب الناس اليه وآثرهم عنده ،
واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف
الى امرأة عاهر ذات ولد مررب ، وأصبح مستحيلاً عليها أن
تعود الى بيتها الأول بعارها فتري وجه ذينك الشخصين اللذين
أحسننا اليها كثيراً وأحبها حباً جماً فأساءت اليهما وغدرت بهما ،
فقد سدت دونها السبل وأظلم ماينها وبين الوجود بأجمعه فما من
رحمة لها في الأرض ولا في السماء

ذلك ما كانت تحدث نفسها به وهى سائرة تحت جدار
القصر سير الذاهل المشدوه لاتعرف لها مذهباً ولا مضطرباً حتى
رأت رأس ابنتها يميل به الكرى فشئت الى ربوة مخضرة على صفة
النهر الجارى يحوار القصر فأضجعتها فوق عشبها وأسبلت عليها
رداءها وجلست بجانبها تنتظر قضاء الله فيها

فانها لجالسة مجلسها هذا وقد سكن الليل وسكن كل شئ ،
فيه إلا ضوء القمر المتفرق في أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء
المتبسطة على صفحات الماء ، اذ شرعت كأنها تسمع بالقرب منها
هاثفاً يهتف باسمها بصوت ضعيف فالتفتت حيث سمعت الصوت
فاذا شبوح أسود ممتد بين حجرين على صفة النهر كأنه إنسان
نائم فارتاعت وفزعته ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة

فأهملها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويداً رويداً حتى دانتها فاذا هو إنسان في زى الساكين مستلق على ظهره شاخصٌ يبصره الى حائط القصر فذهبت بنظرها حيث يذهب فاذا عينه عالقةٌ بنافذتها التي كانت تجلس اليها كل ليلة فعجبت لذلك كل العجب وخفق قلبها خفقاً متداركاً ورأته يضم الى صدره هيئةً بيضاء أسبه بالرقعة ضمناً شديداً فأكبت عليه لتبينه وتري ما يضم الى صدره فاذا الرقعة رسمها واذا هو جلبرت يجود بنفسه ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذنين في أعماق القبور : الوداع ياسوزان ، الوداع ياسوزان ، فعلت كل شيء فصرخت صرخة عظيمة دوى بها الفضاء وقالت : آه لقد قتلتك يا جلبرت ، ثم سقطت على يده تقبلها وتبليها بدموعها وتقول : هأنذا يا جلبرت جائية تحت قدميك فارحني واغفر لي ذنبي فقد أصبحت امرأةً بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني ، وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتمد قليلاً ثم مال بنظره اليها شيئاً فشيئاً حتى رآها فسقطت من جفنه دمة حارة على يدها كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى

ولما دنا مني السياق^(١) نمرضت الى ودوني من تعرضها شغل

أنت وحياض الموت بيني وبينها
وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل



جشت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة قضت فيها ما يجب
عليها لابن عمها وخطيبها وعشيرها الذي أحباها حباً لم يحبه أحد
من قبلا أحداً حتى مات حسره عليها ، ثم استفاقت فذكرت
ابنتها وأنها تركتها على تلك الربرة نائمة وحدها فمادت إليها
مسرعة وقد قررت في نفسها أمراً



لا أعرف أحداً من الناس أوصيه بك يا بنية لأن أباك
أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذي كان يحبني في هذا العالم قد
مات وكنت أعلم أن لهذا السكون إلهاً رحيماً تعلم دخائل القلوب
وسرائر النفوس ويرى لوحة الحزن في أفئدة المحزونين ، ولا عجز
الشقاء بين جوانح الأسقياء ، فأنا أكل أمرك اليه وأتركك بين
يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء

لا أستطيع أن أعيش لك يا بنية فان الناس لا يغفرون لي
الذنب الذي أذنبته حتى الذي أغرائني به وشاركني فيه ، فأنا ذاهبة
إلى ذلك العالم العلوي المملوء عدلاً ورحمة عليّ أجده من يغفر

لى ذنبى ان كنت بريئة ، وبرحمى ان كنت مذنبه
لا أُحِبُّ أن تكون حياىى يائنية شؤما على حياتك ، ولا أن
ياخذك الناس بذنبى كما راؤك بجانبى ، فأنا أتركك وحدك فى هذا
المكان لعل راحما من الناس يمر بك فيعطف عليك ويضعك اليه
من حيث لا يعلم شيئا من أمرك فتعيشين فى يته سعيدة هائلة
لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أملك فتؤلمك ذكراها

اللهم ان كنت تعلم ان هذه الطفلة ضميقة عاجزة تحتاج الى
من يرحمها ويكفل أمرها ، واننى قد أصبحت عاجزة عن البقاء
بجانبها أرهاها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يد لها فى الذنب
الذى أذنبه أبواها ، فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك واحسانك
وهي لها صدرا خنونا ، ومهدا ليئا ، وعيشا رغدا ،

ثم بدأت تسرو ثيابها عن جسمها وتغلى بها جسم ابتها وقاية
لها من برد الليل حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد تركته
ليكون سترًا لعورتها عند انتشار جثتها ، ثم حنت على الطفلة
برفق فلتسها فى جبينها لثة أودعها كل مافى صدرها من حب
ورحمة ورفق وحنان ثم هفت قائلة : الوداع يامارى ، سنلتقى
ياجلبرت ، المغفرة يا كاترين ، وألقت بنفسها فى الماء

ففى المركز الليلة الأولى من ليالى شهر العسل مع عروسه
فى شرفة القصر يسمران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث
تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر ،
ويتقبلان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ، وبرشفتان من كل
كأس من كؤوس اللهورشفة تكثراً بما عندهما منها حتى ثملا
واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشئ مما حولهما فلم يستفيقا حتى
سما دوى الريح وضوضاءها فى أبراج القصر وفى أعالى الأشجار
فعلما أنها الزويمة فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما

فانهما لواقفان موقفهما هذا اذ لحت للمركيزة فى وجه المركز
دهشة واضطراباً ورأته يلتفت التفاتاً شديداً كأنما يتسمع لصوت
غريب فسألته ماباله فلم يجبها وأطل من الشرفة على النهر فرأى كما
رأت هى على نور القمر طفلة صغيرة واقفة على الضفة تصبح وتقول
وتشير يديها نحو الماء وتقول : أماء : أماء : فنظرا حيث تشير
فاذا امرأة عارية أو مؤشكة تنحبط فى لجج الماء تنحبط الغرقى فتترك
المركز مكانه وتزل يمدو الى النهر وهو يقول والهفتاء ان كانت هى
وصاح بخدمة أن يتبعوه ففعلوا حتى بلغ موقف الطفلة فعرف
أنها ابنته وان الغريقة سوزان فاطلم الفضاء فى عينيه وأشار إلى
أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر وأمر الباقي أن يسبحوا

وراء الغريفة ثم سقط في مكانه واهتا متهاكاً ، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء فصبح بعضهم وراء السابحين ووقف الباقون حول المركز ينتظرون رحمة الله واحسانه

اتشر السابحون في كل مكان ومشى وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم فحامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة . مركه هائلة كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا اذا لاح لهم على البعد فيص الغريفة أو سرعها عظم عندهم الأمل فاندفعوا وراءها مستبسلين مسفتلين مغالين أجيال الأمواج المتويزة في وجوههم حتى اذا دنوا من المكان الذى رأوها فيه لا يجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث الموح أن يكر عليهم فبدفعهم إلى الضفة كما كانوا

وما رالت الفترات بين ظهور الغريفة واختفائها تسع شيئاً فتبيناً حتى غابت عن الأعين ولم تظهر فبيط السابحون وراءها ولبثوا ساعة في قاع النهر ثم ظهروا على وجه الماء يحماونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحبة هى أم مبنة وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن و الضفتين فتردد رنينها آفاق السماء حتى وصلوا بها إلى الضفة . فألقوها فاذا هى ميتة

وما هي إلا ساعة حتى كانت الضفة مأتما قائماً يبكي فيه
النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد



لم ينتفع المركيز بنفسه بعد اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه
من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضاً شديداً
فلم تلبث أن لحقت بأما بعد ثلاثة أيام ، واستحال الحب الذي
كانت تضمره له زوجته في نفسها الى بغض واحتقار فهجرت
وسافرت الى « نيس » ، ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه من
شرفة القصر ليلة الفرق لا يفارقه ليله ونهاره فكان كلما مشى في
طريق توم ان أمامه نهراً مائجاً تنخبط سوزان في لجته ، وتصبح
مارى على صفته ، فيصرخ قائلاً : لييك ياسوزان ، ويندفع الى الأمام
كأنما يريد أن يلقي بنفسه في النهر الذي تومه لينجى الغريقة
التي تخيلها فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب
فيسقط معي حسيراً ، وكان يهيم على وجهه أحياناً حتى يصل
إلى ضاحية قرية « لني » فيرى امرأة عجوزاً مكسبة على قبر
بين يديها تبكي وتنتحب فيعلم أنها كاترين وان القبر قبر قتلاه
فيتراجع خائفاً مذعوراً ويصرخ قائلاً : الرحمة الرحمة ! العفو
العفو ! ، وكثيراً ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطاً في بعض

الأماكن التي كنَّ يرين فيها جليبت فيقلن : لقد انتقم الله
لشهداء المسكين والشهيدة المظلومة ، وكان منظر الماء بهيجه
أكثر من كل منظر سواه فاذا رآه تار واضطرب ونهافت عليه
يريد اقتحامه لولا أن يتداركه من يراه

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من
الأيام طافية على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان
فعلموا أنها نهاية الجزاء



مرّ على هذه الحادثة خمسون عاماً ولا يزال عجائز قرية « ليني »
والقرى المحيطة بها يحفظونها حتى اليوم ويكيّن كلما ذكرنها ورويناها
لبنائهن وحفيداتهن عبرة يمتدّن بها كلما طاف بهن طائف
من شرور الرجال

العقاب

« موضوعة ^(١) »

رأيتُ فيما يرى النائمُ في ليلة من ليالى الصيف الماضى كأنى
هبطت مدينة كبرى لا علم لى باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا
بالمصر الذى هى فيه فشئتُ فى طرقها بضع ساعات فرأيت
أجناساً من البشر لا عِدَادَ لهم ينطقون بأنواع من اللغات
لا حصر لها فخيّل الىّ ان الدنيا قد استحالت الى مدينة وان
الذى أراه بين يديّ العالمُ بأجمعه من أدناه الى أقصاه فلم أزل
أنتقل من مكان الى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى
انتهى بى المسير إلى بنية عظيمة لم أرَ بين البنى أعظم منها سائناً
ولا أهول منظرأ وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس
ومشى فى أفنيئها وأبهاثها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم
وحائلهم جيئةً وذُهباً فسألتُ بعض الواقفين ماهذه البنية وما

(١) وصفت هذه القصة على سق قصة أمريكية اسمها صراح القنور

هذا الجمع المحتشد على بابها فعلت انها قصر الأمير وان اليوم يوم
القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى
نادى مناد في الناس أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل
الناس ودخلت على أثرهم وجلست حيث انتهى بي المجلس فرأيت
الأمير جالساً على كرسي من ذهب يتلأل في وسط الفناء تلالو
الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه رجل يلبس مُسوحاً^(١) وعلى
يساره آخر يلبس طيلساً فسألتُ عنهما فعرفت ان الذي على
يمينه كاهن الدير والذي على يساره فاضى المدينة ورأيتُه ينظر في
ورقة بيضاء بين يديه فأكب عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليوت
بالمجرمين ، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن
مثل حلق الليث منظرًا وزئيراً وخرج منه الأعوان يقتادون
شيخاً هرمًا تكاد أسنمه قوائمه ضعفاً ووهناً فسأل الأمير ماجرته^٢
فقال الكاهن انه لص دخل الدير فسرق منه غرارة^(٣) من
غرائر الدقيق المخصصة للفقراء والمساكين ، فضج الناس ضحيجاً
عالياً وصاحوا وبل للمجرم الأثيم أيسرق مال الله في بيت الله
ثم نودى بالشهود فشهد عليه رهبان الدير فتسار^٤ الأمير مع

(١) السوح جمع مسح والكسر وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان

(٢) العرارة المواق

الكاهن برهة ثم قال يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع بمناء ثم يسراه ثم بقية أطرافه ثم يقطع رأسه ويترك طعاماً للطير الغادى والوحش الساعب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد اليده الضعيفة المرتعشة كأنما يحاول أن يسترحمه فضرب الأعوان على فيه واحتملوه إلى محبسه ، ثم عادوا وبين أيديهم فتى فى الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقاً حتى وقفوا به بين يدي الأمير فسأل ماجريته فقالوا انه قاتل ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقع فى إبانته فاتهره القائد فاحتدم غيظاً وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته ، فصاح الناس باللفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه ، ثم جرى بأعوان القائد المقتول فأدوا شهادتهم فأطرق الأمير برهة ، ثم رفع رأسه وقال يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيُصالب على جذع شجرة ثم تُقصدُ عروقه كلها حتى لا يبقى فى جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ، وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاءً لولا سحابة غبراء من الحزن تشدجى فوق جبينها فقال الأمير ماجريتها فقال القاضى

انها امرأة زانية دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى
غريب كان يجيها ويطلع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج
الناس واضطربوا وهتفوا القتل القتل الرجم الرجم انها الجريمة
العظمى والخيانة الكبرى ، فقال الامير أين شاهدها ، فدخل
قريبها الذي كشف أمرها فشهد عايبها ، فمس القاضي في أذن
الامير ساعة ثم قال الامير نؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم
حارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة
لحم ، فهلل الناس وكبروا إعجاباً بمدل الامير وحزمه ، وإكباراً
لسطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض
فنهض الناس بنهوضه ومضوا السبيلهم فرحين مغتبطين وخرجت
على أثرهم حزناً مكتئباً أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي
لم يُسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ولم يشهد فيها على
المتهمين غير خصومهم ولم تُقدّر فيها العقوبات على مقدار الجرائم
وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة العاهرة وغلوتهم
في تسديسها وإعظامها واغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها
عدلاً كان أو ظالماً رحمة أو قسوة وأردد في نفسي هذه الكلمات
ليت شمري ألا يوجد بين هؤلاء الثأرين على هؤلاء المساكين
لص أو قاتل أو زان يعلم عذرم فيرحمهم وينظر إلى جرائمهم بالعين

التي ينظر بها إلى جريمته ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه
إن قُدِّر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضية مثل
قضائهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً
عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسدُّ به جوعته أو جوعته
أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم
العائلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط في يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حله
فتخفُّ لوعة حزنه على الفرارة المسروقة من ديرهِ ويستغفر هذه
تلك ؟

ألم تزلَّ قدم القاضي ساعة واحدة في ماصِّبه من أيام حياته
قهداً ثوراً غضبه على الساقطين والساقطات ؟

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في
أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ، ويُقسِّمون السمود والنحوس
بين البشر كما يريدون ؟

انهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا أملاك مطهرين ، ولا
يحملون في أيديهم عهداً من الله تعالى بكل اليهم فيه أمر عباده

ويضع في أيديهم حظوظهم وأصبتهم ، فباى حق يجلسون هذه
الجلسة على هذه المقاعد ، ومن أى قوة شرعة يستمدون هذه
السلطة التى يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ،

من هو الامير ، أليس هو المستبد الأعظم فى الأمة أو سلالة
المستبد الأعظم الذى استطاع سوته وقهره أن يتخذ من أعناق
الناس وكواهلهم سداً يصعد عليها إلى العرش الذى يجلس عليه ،
من هو الكاهن ، أليس هو أبرع الناس وأمرهم فى استغلال
النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟

من هو القاضى ، أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق
صورة الباطل والباطل صورة الحق ،

ومتى كان المستبدون والامصوص والظلمة اختياراً صالحين ،
أو أبراراً طاهرين

عجيب جداً أن يقتل الرجلُ الرجلَ لفضبة يفضها لعرسه
أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الاميرُ القاتلَ سُمى عادلاً ، وإن
يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يُقيت بها عياله فيسمى لصاً ،
فإذا أمر القاضى بقطع أطرافه والتمثيل به سُمى حازماً ، وأن تسقط
المرأة سقطه ربما ساقها إليها خُدعة من خُدع الرجال أو نزغة من
نزغات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبسمون منظرها ،

فاذا رآوها مشدودة إلى بعض الأنصاب طارية تتساقط عليها
حجارة الرجم من كل صوب أسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها
كما ان النار لا تطفى النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه
مرة أخرى ، ومقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ،
كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحي الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء
ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل
فررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها اسراب من الطير
غادية رائحة فاخرقتها حتى بلغت أبعاد بقاعها عن أطرافها فرأيت
منظراً هائلاً لا يزال أثره عالقاً بنفسى حتى اليوم

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لأرأس لها ولا أطراف ، ثم
رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبته حاسرات ،
ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجره فرعاء كأنه بعض أغصانها وقد
سأ جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً مائلاً ، أو خيالاً
سارياً ، ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستين لها رأس
ولا قدم وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم
رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم فعملت
انها تجمع دماً هوذا ، المساكين فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على
عيني قليلاً قليلاً حتى غاب عن نظري كل شئ ، فسقطت في مكانى

لا أشعر بشيء مما حولى فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل
فتحت عيني فإذا شيخ اسود يدومني رويداً رويداً فارتعت لمنظره
وفزعت إلى ساق الشجرة فاخبتأت وراءه ، فزال يتقدم حتى
صار تحت الشجرة فأشمل مصباحاً صغيراً كان في يده فتبينتُهُ
على نوره فإذا عجوز شمطاء في زى المساكين وسحتهم فشت
تصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه
ساعةً تبكيه وتندبه ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها
إلى جثته ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها
وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل الله ماليت في سبيلي
وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه
روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس
زوجاً وأباً ، وأطهرهم لساناً ويداً ، وأشرفهم قلباً ونفساً ، فاذهب
إلى ربك لتلقى جزاءك عنده واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى
لقاليلك وظالميك ، وأسأله أن يلحقني بك وسيكاً فلا شيء
يعزبني عنك بعد فراقك ، إلا الأمل في لقاءك » ، فأبكاني
بكاءً وها ، وأحزنى منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول
وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء وأحببت أن أقف على
قصتها وقصته فبرزت من مخبي ومشيت إليها فارتاعت لمرآى عند

النظرة الأولى ثم سكنت كأنما ذكرت أن لاقية لمصاب الحياة
 بعد مصابها الذي نزل بها منذ اليوم فاجتدرتها بقولي لا تُراعى
 ياسيدي فانا رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه
 ولا من شأن أهله شيئاً وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر
 ونفجمت على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت لو
 أفضيت إلى بذات نفسك على أستطيع أن أكون عوناً لك على
 همك ، فاستعبرت باكية وألشأت تحدثني وتقول

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً بل
 قضى أيام سبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتّر ساعة واحدة عن
 السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده وكان واحده
 فاشتد به ساعده وحمل على طاقه بمصر ما كان يستقل بحملا من الهم ،
 وما هو إلا أن نيمنا به وبعمونه برهة من الدهر حتى نزلت به نازلة
 القضاء فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه وخلف وراءه خمسة
 أولاد صغار لا يتجاوز أكرم العاشرة من عمره وكانت قد أدركت
 أباه الشيخوخة فاجتمع عليه هم الكبر وهم النكّل فأصبح عاجزاً
 عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة ^(١) وأصبحنا جميعاً في
 حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألم

(١) القية الساعة والحق

به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام وليس في يدنا ما تقوم به أصلاب صغارنا ولا مانعناهم به تعليلاً فأسقط في يدنا وعلما أننا لكون جميعاً أن لم يتداركنا الله برحمته من عنده فلم أرَ بداً من أن ألبأ إلى الخطة التي يلجأ اليها كل مضطر عديم فبرزت للناس أتعرض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إلى بجرعة ولا مضمة ولا من يدلني على سبيل ذلك، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ولا أحمل ركونهم^(١) فعدت إلى منزلي ويين جنبي من الهمة ما الله به عليم فرأيت الأطفال سهداً يتضاغون^(٢) جوعاً ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبيل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ولا كيف يحتال، ولو أن شخص الموت برز إلى في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون بأعينهم من حوال ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم؟ وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل، والكمد الشامل، فنقدمت نحو الشيخ وقلت له إن في دير المدينة كما يزعمون مالا

(١) الزكوة وطاء للماء على صورة الرورق يحمله الشحاذون

(٢) يتضاغون من الجوع يتصورون منه

للصدقات يتول الكاهن الأعظم إتقافه على الفقراء والمساكين
فلو ذهبت إليه وكشفت له خلعتك وسألته أن يمنحك علالة من
ذلك المال تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطقي لوعة هؤلاء
الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام الى عصاه
فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن
حتى وقف بين يديه فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع
ما أبتت الأيام في جفنيه التريحين من دموع فاستقبله الكاهن
بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً وقال له إن الدير لا يحسن
إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل وما كنت في يوم من
أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ، فأذهب لشأنك فأبواب
العيش واسعة بين يديك فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع
منها ، فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى قضاء الدنيا في
نظره إلا كيفية الحابل ^(١) أو أخوص القطاة ^(٢) حتى نزل الى
ساحة الدير فلمح في إحدى زواياها غرارة ^(٣) دقيق فخدمته نفسه
بها وما كانت تحدته لولا العوز والفاقة ثم أدركه الحياء فأغضى عنها
واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة

(١) الحابل العائد لانه يرمي الحالة للمعبد وكمته حالته

(٢) الخوص القطاة محتمل لانها تخرج من اثواب لتبليس به

(٣) الغرارة الحواشي

أخرى فعاوده حدثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : « إن الطعام طعام الفقراء والمساكين وأنا فقير مسكين لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ولا أفقر مني ، فان كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش » ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجماً فما تجاوز عتبة الدير حتى أنقله الحمل وشعر أنه عاجز عن السير فخذنه نفسه بالقائه عن ظهره ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار وهم ألقاءه^(١) تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فعمل على نفسه ومشى يعنمد على عصاه مرة وعلى الجدران أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ولا تعلو وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد أطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله وإذا تقنة من دم قد دقت من صدره فالتحدرت على رءائه فسقط في مكانه مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتى مرَّ به العسس^(٢) فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم

(١) الالتقاء جمع لقى كمتى ، واللقى الشيء الملقى المطروح
(٢) العسس الطائمون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة

الفرارة ! الفرارة ! وبشدونها في أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا
يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ
فمروا ضالّتهم وما هي إلا ساعة حتى كانت الفرارة في الدير وكان
الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفا
عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمته لى ولأطفالي البؤساء
المساكين من بعده

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رداثها ونظرت
إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يارفيق صباى وعماد
سيخوختى ، الوداع ياخير الأزواج وأبرّ المشراء ، الوداع حتى
يجمع الله بينى وبينك في دار جزائه » ، ثم انكفأت راجعة في
الطريق التي جاءت منها

وما هو إلا أن تغفل شخصها في أعماق الظلام حتى رأيت سبعا
آخر بترأى من حيث اختفى الشبح الأول وأقبل ينقدم نحوى
متسللاً كأنما يختلس خطواته اختلاسا واختبأت وراء الشجرة لأرى
ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعته ويرسل
الخيوط الأولى من أسعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح
على نوره فاذا فناة جميلة باكية لم أر في حياتى دمة على خد أجمل
من دمتها على خدها فدارت بعينها لحظة حتى وقع نظرها على

جثة المصلوب بين أغصان الشجرة فشت إليه ومدت يدها الى
الحبل الملتف به فعالت عقده حتى انحلت ثم تلقت على يدها
وأضجته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة
ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة
واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقباه وتلم شعره وجبينه وترفر
فيما بين ذلك زفيراً شديداً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً حتى
نال منها الجهد قالت برأسها وهوت بجانبه هوى الجذع الساقط
لا حراك بها ، فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه
فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشمرت بانفاسها الضعيفة تردد
في صدرها فعلمت أنها حية جلست فوق رأسها أندبها وأدعو
الله لها حتى استفاقت بعد برهة فرأيتني بجانبها فنظرت الى
نظرة حائرة ثم تقدمت نحوي وقالت على من تبكى أيها الرجل
الغريب في هذا المكان ؟ قلت أبكى عليك ياسيدتى وعلى فقيدك
البائس المسكين ، قالت نعم انه بائس مسكين فابك عليه
ياسيدى بكاءً كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة
النفوس ومُتعة الأفتدة والفلوب ، ولقد ظلموه أذقلوه فما كان قاتلاً
ولا مجرمًا ولكنه رجل رأى عرصنه فريسة في يد من يريد تمزيقه
فقطع تلك اليد الممتدة إليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ،

ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه فأجرم من ذاد عن
عرضه ، ولا أثم من قتل فأنله ، قلت هل لك أن تقص على
قصته ياسيدي ؟ قالت نعم :

نزل قريتنا في صباح يوم من الأيام فائد من قواد الامير الذين
يطوفون البلاد لجمع الضرائب من أهلها فزال يمر بأبيات القرية
يتأيتا حتى بلغ منزلنا وكذب واقفة على بابي فنظر الى نظرة
مريبة طار لها قلبي خوفا وفزعاً ثم سألتني عن أخي فدلتته عليه فسأله
عن المال فاستنساء^(١) إياه أياماً فلأثل حتى يبيع غلته فأبى إلا
أن يتم حله الساعة أو يأخذني رهينة عنده الى يوم الوفاء وغزبي
بعض أعوانه فداروا حولى وكنت أسمع قبل اليوم حديث
هؤلاء الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن قصر الامير رهائن
فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات إلى قبورهن فنزعته
الى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل وقال له لا شأن
لك مع الفتاه إنما أنا صاحب المال والمأخوذ به فان كان لابد لك
من رهينة فانا رهينة مالى حتى يصل اليك ، فقال له لابد لي من
المال أو الرهينة ولا بد أن نكون الرهينة التي أريدها فان أبيت
حفيائك فداء عنها ، فغضب أخى غضبة انتفض لها في جبينه

(١) استنساء غريمه الدس طلب منه أن يستنساءه أى يؤجله له

عرق لم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له : فلنكن
حياتي فداء لشرفي ، ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه
ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غلغله (١) الأعوان
واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته ياسيدي وذاك مماته ، فلئن
بكيته فإني أبكي في الفتیان همه ونجدة ، وبادرة الرجال عزرة
وإيالة ، وأفضل الأخوة رحمةً وحناناً

ثم قالت هل لك أن تعينني ياسيدي على مواراته قبل أن يحول
التهار بيني وبينه فقد أصبحتُ واهية متضعضة لا أقوى على
شيء فقممت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب
حفرة الشيخ فواريته فيها فتقدمت الفتاة إلى القبر وجثت بجانبه
ساعة مطرقة ساكنة لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى
فارقت مكانها فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ثم مدت يدها إلى
وقالت : سكرأ لك ياسيدي فقد أعنتني على موقف لا يجد فيه
مستعين معيناً ، ومضت لسبيلها

فأتبعها نظري حتى اخففت آخر طية من طيات رداها
فعدت إلى نفسي فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال في مكانها
فهاجني منظرها وقلت في نفسي : انني لا أدخر لنفسي صلاً

(١) غله وصح في عقبه العال

أرجو فيه إرحمة الله وإحسانه يوم جزائه أفضل من مواراة هذه
المسكينة التراب ، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين
ثم ألقيت عليها رداً واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في
حفرتها ، فاني لأحشو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورأني فالتفت
فاذا فتى يافع متلفع يردة سوداء لا يستبين منها غير يياض
وجهه فابتدرني بقوله من صاحب هذا القبر الذي تحشوا ترابه ياسيدي ؟
قلت فتاةً مرجومة رأيت جثتها الساعةً منبوذةً في هذا العراء
فرحمتُ مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه ، قال ان لي
ياسيدي مع هذه الفتاة شأنًا فهل تأذن لي أن أودعها الوداع
الآخر قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ قلت نعم شأنك وما
تريد ، ونحيت قليلاً فدنا من القبر وجنا فوق ترابه وظلّ يناجي
الدفينه نجاءً خلّت أن الكواكب تردده في سمانها ، والرياح ترجمه
في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه فقام إلى التراب يهيله عليها حتى
واراها ثم التفت الى وقال لقد شكر الله لك ياسيدي هذه اليد
التي أسديتها الى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس من
عورتها ، وحفظ ما أصنعوا من حرمتها ، جزاك الله خيراً بما فعلت ،
وأحسن اليك كما أحسنت اليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقالت
له : وهل مانت هذه الفتاة مظلومةً كما تقول ؟ فانفرجت شفاته

عن ابتسامة مرة ونظر الى نظرة هادئة مطمئنة وقال نعم ياسيدى
ولولا ذلك ما رأيتنى الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها
أنا الرجل الذى اتهموها به وأستطيع أن أقول لك كما أقول
لربى يوم أقف بين يديه رافعاً اليه ظلامتها إليها ريثة مما رموها
به وانها أظهر من الزهرة المطولة ، وأنقى من القطرة الصافية
لقد أحبت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لعبة وأحبتنى كذلك
ثم شببتنا وشب الحب معنا فنعاقدنا على الوفاء والى خلاص ثم
خطبتها الى أيها فأخطبني ^(١) راضياً مسروراً حتى اذا لم يبق بينى
وبين البناء بها إلا أيام معدودات اذ نزلت بأبيها نازلة الموت
فعلما أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ففعلما حتى
اذا انقضى العام أو كاد حدث أن ذهب الفتاة الى قاضى المدينة
فى أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضى فتبعها نفسه فأرسل وراء
صمها وكان ولى أمرها بعد أيها وهو رجل من الطامعين المداهنين
الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً مائجاً من الدم اذا تراءى لهم على
شاطئه الثانى دينار لامع فعرض عليه رغبته فى الزواج من ابنة
أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ولم يتردد فى اجابة طلبه وعاد
الى الفتاة يحمل اليها هذه البشرى فاستقبلته بوجه باسر وقالت له

إني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يُبَلِّقْ
 بقولها وقال لها ستزوجين ممن أريد طائفةً أو كارهةً فلا خيار لك
 في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدى ، وما هي إلا أيام قلائل
 حتى أعدوا لها عدةً زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس
 ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية
 وخرجت تحت ستار الليل هائمةً على وجهها لا تعلم أين تذهب
 ولا أى طريق تسلك ، وكان معها قد رفع الى القاضي أمر فرارها
 فبت عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان حتى لحما بمضهم
 على البعد جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه
 وتركته حقيبتها في مكانها وفرت من بين يديه تعدو عدو أسريماً
 وكنتُ عائداً في تلك الساعة الى منزلى فرأيتني فألفت نفسها على
 وقالت انهم يتبعوننى وانهم ان ظفروا بى قتلونى فارحمنى يرحمك
 الله ، فأهمنى أمرها وذهبت بها الى منزلى وأخفيها في بعض
 حجراته وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي
 يطلبها طلباً شديداً فأنكرت رؤيتها فلم يصدقنى وأخذ يضرب
 أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : ها هي ذا الفتاة
 الزانية وهذا صاحبها ، فأقسمتُ له بكل محرجة من الايمان أنها
 بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ الى ، وأمر الأعوان فاحتملوها

وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربنى أحدهم على رأسه
ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً عليّ فلم أستفق إلا بعد
برهة طويلة فوجدت الحى قد أخذت مكانها من جسمى فلزمت
فراشى بضمة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى
رأيت فأشعر بالردة تمشى فى أعضائى فأعود الى ذهولى
واستغراقى حتى أدركتنى رحمة الله فأبليت منذ الأمس بمض
الابلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلى فعملت ماتم من
أمر الفتاة فجئت كما ترائى أودعها الوداع الأخير وأوارى جثتها
التراب ، وما أنا بالسالى عنها ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها
حتى ألحق بها

ثم أتى على قبرها نظرة جمعت فى طياتها جميع معانى
النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ومضى لسبيله
فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت النمر ينحدر الى مغربه ثم ما
لبث أن اختفى فاذا الفضاء ظلمة وسكون ، واذا الساحة وحشة
واقباض ، فصعدتُ الى ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة
فتلففت بردائى وأخذت مضجعى منها وأنشأت أحدث نفسى
وأقول

ليت شمرى ألا يوجد فى هذه الدنيا عادل ولا راحم ، فاز

خلت منها رقعة الأرض فهل خلت منها ساحة السماء ؟
 أجرم العليم الديني لأنه صنَّ على ذلك الشيخ المسكين يدرهم
 من مال الله يسد به جوعته وجوعة أهل بيته فاضطر الرجل الى
 ارتكاب جريمة السرقة فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب
 القاسى على قسوته ، ولولا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق
 وأجرم الامير لأنه أرسل قائده لاخطاف فتاه حره لا تؤثر
 أن تجود بمرضها فاضطر أخوها الى الدود عنها فارتكب جريمة
 القتل في زياده فعوقب الفتى على جريمته وسلم دافعه الى الاجرام
 وأجرم القاضى لأنه أراد أن نكروه فتاة لانهجه على الزواج
 منه ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوه على ظلمه
 واستبداده

وهكذا أصبح المجرم بريئا ، والبرى مجرما ، بل أصبح المجرم
 قاضى البرى ، وصاحب النظر فى أمره
 فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم أم لاتزال تُنيرها
 بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومُزنها ،
 ثم النمت الى مصرع للمقبورين فوق نظرى على بركة الدم
 التى اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء فرأيت خيال نجم فى
 السماء يتلأل فوق صفحتها فرفعت نظرى الى ذلك النجم فاذا

هو المريح^(١) يتأهب ويضطرم كأنه جرة النفيظ في أفئدة
الموتورين فملق نظري به ساعة ثم رأيت كأنه يهبط الى الأرض
شيئا فشيئا فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى اذا لم يبق بينه
وبين الأرض الا ميل أو بعض الليل إذا به يتفرض انتفاضا
شديدا وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث
الشر من عينيه ومنخره ويتطاير من أجنحته وأطرافه فلم يزل
هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظل قبور الشهداء
ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت
بها الأرجاء ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في أعماق
السماء ويقول

ها هم الناس قد عادوا الى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد
مُلئت شرّاً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن
يأوى اليها في مهبطه ملكٌ من أملاك السماء
ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً ،
وها هي لحوم الفقراء تحدر في بطون الأغنياء انحداراً ، فلا
الأولون بمستسيكين ، ولا الآخرون بقانين
ها هم الفقراء يموتون جوعاً فلا يجدون من يحسن اليهم ،

(١) يسمى قدهاء اليونان في اساطيرهم المريح اله الحرب

والمنكوبون يموتون كدماً فلا يجدون من يعينهم على همومهم
وأحزانهم

هائم الأمراء قد خاؤا عهد الله وخفروا ذمته فأخذوا السيوف
التي وصعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق وتقلدوا سيوفاً غيرها
لا هي إلى الشريعة ولا إلى الطبيعة ومثوا بها يفتحون لأنفسهم
طرق شهواتهم ولداتهم حتى ينالوا منها ما يريدون

هائم القضاء قد طعموا وظلموا ووضعوا القانون ترساً أمام
أعينهم يُصيبون من ورائه ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون
تحت حمائه ولا تُنالون

هائم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا فحولوا معابدهم إلى
مفاوِر لصوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ثم يضمنون
بالقليل منه على الفقراء والمساكين

هائم الناس قد أصبحوا أعواناً للأمراء على شهواتهم ،
والقضاء على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط
عليهم جميعاً قسمة الله ملوكاً ومملوكين ، ورؤساء ومرءوسين

لتسقط العروش ، وتهدم المعابد ، ولتنهوض المحاكم ، ولتيمم
الخراب المدن والأمصاير ، والسهول والأوعار ، والنجاد
ولأغوار ، ولتنفرد الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال

والنساء، والشيوخ والأطفال، والأخيار والأشرار، والمجرمون
والأبرياء، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون
١ وما انتهى من دعوته تلك حتى رأيت بركة الدم تقور كما فار
التور يوم دعوه نوح ثم فاضت الدماء منها ومشت تندفق في
الأرض تدفق السيل المنحدر وإذا الأرض ببحر أحمر يزخر ويعتليج
ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع، وقصور وأكواخ،
وحيوان واسبان، وناطق وصامت، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً
حتى ضرب بأموأجه رأس الربوة التي أما جالس فوقها فصرخت
صرخة عظيمة فاستيقظت من نومي وكان ذلك في صباح اليوم
الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصبح
تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

الضحية

« مترجمة »

نشأت مرعرت جوتييه فقيرةً لاتملك مالاً تشتري به
زوجاً ، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسه بلا مال ، أو يحسن
إليها بما يسد خلتها ، ويستر عورتها ، وكان لابد لها أن تعيش ،
فلم تجد بين يديها سوى عرضها فذهبت به الى سوق الشقاء
والآلام فساومها فيه بعض المساومين بأجنس الأثمان فباعته إياه
كارهة مرعومة وكانت من الخاسرين

لقد كان جمالها شؤماً عليها ، فلو أنها كانت شوها لوجدت
في الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكن الجمال سلعة من السلع
النافقة ^(١) لا يستطيع صاحبه أن ينال ما في أيدي الناس ان كان
فقيراً مُعوِزاً إلا من طريق المساومة فيه

لذلك نعت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعاً ، وأقسمت

(١) نفقت السلعة راحت ورحم الناس منها

أن تتخذ من جملها الذى هو مطمح أنظارهم ، وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم لعرصتها وشرها

ولقد برت بيننا برّ الوفى بمعهده فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم فى أموالهم وفى أنفسهم ولم تأسف عليهم ، ونظرت الى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور وهى تقول ويحّ لكم معشر لرجال ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيافاً واحداً لغدائى ، وآخر لعشائى ، فأيتموها على ، فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ماتملاك أيديكم من مال ونشب بدلتموه لى طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم ، وأخس أقداركم لمدكان فى استطاعة أصفركم شأننا ، وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعاً ، أن يشتري منى جسمى وقلبى وحياتى بثلاثين سوى سد خلتي ، وصيانة عرضى ، فلم تفعلوا ، فهام اليوم عظامؤكم وأشرافكم يبحثون تحت قدميّ مجي الكلب الدليل تحت مائدة سيده ، فلا يناولون منى أكثر مما ينال منها

أحييتكم المال حباً جافاً فأيتم الا أن تزوجوا ذات مال لتضموا طارفها الى تليدكم ^(١) فابذلوا اليوم لامرأة مومس لاتمنحكم مالا ولا حباً جميع ما فى أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد

(١) الطارف من المال حديثه والتليد قديمه



ظهرت مر غربت في سماء باريس كوكبا متلاثكا يبعث
 الأنوار، ويَهَرُّ الأَنْظار، ويملأ أجواز الفضاء، بهجة وضياء،
 فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر، وسال النصار
 بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل، وعنت
 لها الوجوه الكريمة، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة،
 وأصبحت أعناق الرجال في يديها كأنما قد سلكهم جميعا في سلك
 واحد، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون، وتمسك
 عنه فيمسكون، وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه،
 لا يُشبعه فيستغنى عنه، ولا يُجبعه فييأس منه، فكانت تملأ
 نفس عاشقها أملاً ورجاء حتى اذا ظن أن قد دنا به حظه، وأن
 ليس بينه وبين أمله إلا أن يمد اليه يده فينال، زادته عنه ذود
 الظامئ الهيمان عن ورده أدنى ما يكون من فمه، فاذا علمت ان
 اليأس قد بلغ من نفسه، وانه قد أزمع أن يركب رأسه الى حيث
 لا مرد له، بعث وراءه شعاعاً من أشعة ابتساماتها المذبذبة الخالبة
 فاستردته به اليها صاغراً مذعناً

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تُعوزها
 بالأمس اللقمة، وتُعِيها الخرقه، سيدة باريس، وصاحبة عرشها،

ومالكة أزمّة رجالها ، وفاجعة قلوب نساها ، والنجم الخافق الذى
 يتنهل إليه العيون ، والسرّ النامض الذى تحار فيه الظنون
 ذلك ما يعلمه الناس من أمرها ، أما ما تعلمه من أمر نفسها
 وهى أنها كانت ترى ان جميع ما يبدله لها الناس من فضة وذهب ،
 وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ؛ لا يساوى
 دمة واحدة من تلك الدموع التى سكبتها على نفسها يوم باعت
 عرضها ، وان جميع هذه اللآلى والجواهر والأردية والتيجان التى
 يهبونها إياها إنما يهبونها لأنفسهم ليتمتعوا بمنظرها على جسمها كما
 يتمتع صاحب الكلب بمنظر الفلادة فى عنق كلبه وماله من ذلك
 شئ ، فكأنما باعت عرضها بلا تمن ولا جزاء

وكانت تخلو بنفسها حيناً فتدكر ان جميع هذه القلوب الطائرة
 حولها إنما تطير على جمالها لا عليها ، وانها إن حرمت هذا الجمال
 ساعة واحدة انقضّ الناس جميعاً من حولها ، وأصبحت وحيدة
 منقطعة فى هذا العالم لا يعطف عليها قلب ، ولا يبكى عليها عين ،
 فتبكي بكاء الأنقياء على أنفسهم ، بل ترى انها شقية مثلهم ، لأنها
 تعاشر من لا تحب ، وتحيا بين قوم لا يحبونها الا حباً كاذباً

وربما صرّت فى بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس
 قصرها وهو جالس بين زوجته وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ،

ويعجونه من ذلك مثل ما يمنحهم ، فتمنى ان لو كان جميع حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة ، وزوجاً وأولاداً كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد ، ثم لا نطلب بعد ذلك شيئاً

وما رآها الناس في يوم من أيامها قبلت في قصرها رجلاً متزوجاً أو خاطباً ، فكانوا يحملون ذلك من أمرها على محل الآثرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو انهم عرفوا سر حياتها ، وألموا بسريرة نفسها ، لعلموا انها امرأة حزينة منكوبة قد فجعا الدهر في سعادته الزوجية ففهمت قيمتها فهي لا تحب أن تسلبها امرأة غيرها

ولقد تحدث بعض الذين عرفوا بعض شؤونها الخاصة انها وهبت مزينين أو ثلاثاً لبعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعن بها على الزواج ممن يردن ، فلم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهباً ، وإن ينبوع الخير لا يتفجر في قلوب الفاجرات ، ولكن الحقيقة انها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه

هذا هو قلب مرغريت ، وهذه هي سريرة نفسها ، فهي فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ، وساقطة ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلاً ، وربما لو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها وإيابتها مكانتها في

قلوب الناس ، وأن تمحو بصلاحها ماسلف من فسادها ، وكانت
هى أقرب النساء الى التوبة والزروع ، ولكن المجتمع الدي أسقطها
وسلبها ذلك الرءاء من الشرف الذى كانت ترتديه يأتى عليها أن
يميد اليها رءاءها ان طلبته ، فلا بد لها من الاستمرار فى سقوطها
راضية أو كارهة ، وكذلك كان شأنها



لم يمض على مر غريت فى حياتها هذه أكثر من خمسة أعوام
حتى نزل بها مرضٌ حجيبٌ فى يئنها عدة أيام ثم استد عليها فأشار
عليها الأطباء أن تذهب الى حمامات « البانير » للاستشفاء
بماثا وهوائها فسافرت اليها وحدها لا يصحبها الا خادماتها ، وكان
فى ذلك المصطاف ^(١) فى هذا العام شبح من الأسرياء اسمه
الدوق موهان حضر اليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر
ليشفها من دائها فلم تجدها العلاج وماتت بين يديه فدفنها هناك ،
ولبت بعد موتها عدة أيام يخلف ال قبرها وبسكها بكاء سديداً ،
فانه لعائده من المقبرة ذاب يوم اذ لمح فى طريقه مر غريت سائرة
وحدها وكان ذلك فى اليوم الثانى من وصولها الى البانير
فدهس لمنظرها دهشة عظمى وخيل اليه ان الله قد بم له ابنته

(١) المصطاف كان الاصطاف

من قبرها ، أو أرسل اليه خيالها ليعزيه عنها ، لمكان الشبه الذى رآه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها ذاهلاً مشدوهاً وأمسك بطرف رداثها وظل يحدق فى وجهها تحديقاً طويلاً فعميت لسانه وسألته مباله فقال لها : هل تأذنين لى ياسيدتى أن أقبل يدك ؟ فذت اليه يدها وهى لاتعلم ماذا يريد ولا ما الذى أصابه فلتشها ثم اعتذر اليها عن جرأته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه فى ابنته ، وما راعه من الشبه بين صورتها وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلت من جفنها دموعه رآها الشيخ من خلال أهداب عينيه المبتلة بالدموع فسقط على يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدفعة التى جادت بها عليه فى ساعة شقائه ، ولم يزل سائراً معها حتى وصلا الى التزل فودعها ومضى بعد ما استأذنها أن يختلف اليها لزيارتها من حين الى حين فأذنته بذلك وصعدت الى غرفتها ، فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر فى أمر تلك الفتاة المسكينة التى اختطفها الموت من يد أيها فى زهرة صباها من حيث لم يستطع طيب ولا عائد رد عاديه القضاء عنها ، ثم خطر لها انها مريضة بمثل المرض الذى ماتت به وانهار بما ماتت موتها فلا نجد بجانبها أباً كهذا الأب يندبها وبكى عليها ، فأثر فى نفسها

هذا الخاطر تأثيراً شديداً ، وبكت له بكاءً طويلاً ، ولزمت
غرفتها في ذلك اليوم لاتفارقها

وما زال الدوق يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلاً ويجد
من الأنس بها ، والاغتباط بعشرتها ، مايسكنُ لوعة نفسه كلما شبها
الوجد في صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ،
وكأنما لذ لها أن يرى ذلك الشيخ الناكل المنكوب في وجهها
سلوته وعزاه فتنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحداً من قبله ،
وأنت به أنسا لم تأنسه بانسان سواه

وما هي إلا أيام قلائل حتى ابليت بعض الايام بلال^(١) من مرضها
وعاد الى وجهها الجليل روتقه وبهاؤه ، والى ثرها البديع ابتسامه
واقتراره ، فلذ لها المقام في البانير أياماً طويلاً حتى شعرت
بهبوب رياح الشتاء فأزمت العودة الى باريس فشق ذلك على
الدوق وعلم انها ان عادت اليها لا يظفر منها في ذلك المجتمع الهائل
الحافل بخلائها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في البانير ،
نخلابها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثاً طويلاً انتهى بالاتفاق
معا على أن تهجر حيانها الأولى حياة المخالة والمعاشرة وتعيش
في منزل يهيئه لها ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف

اليها من حين الى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني الى باريس
ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ،
فأصبحت تعيش في قصرها الذي هبأ لها الدوق عيشاً بين
العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً ، ولا تمتزج مع
الذين تستقبلهم الامتزاج كله ، وربما مرت بها أيام لا يراها الناس
خارج قصرها إلا قليلاً ، فاذا خرجت ركبت عربتها وحدها
دون رفيق أو رفيقة ومشت في طريقها تقرأ في كتاب أو في
جريدة فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا ترام ، فاذا وقع نظرها
على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة فلما يشعر بها
أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل الى منزله « الشانزلزيه »
فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود الى
قصرها ، فاذا جاء الليل ذهبت الى ملعب التمثيل وحدها أو مع
الرجل القائم بشأنها فتقضى فيه اكثر وقتها ناظرة الى التمثيل
لا يشغلها كثرة الناظرين اليها ، والمتهاوتين على مقصورتها ، عن
تتبع فصول الرواية والتأثر بوقائعها حتى تنتهي

فلم تمض عليها أيام كثيرة حتى علم الناس جميعاً أن صرغريت
قد استحالَتْ حالها ، وتغيرت صورة حياتها ، وأنها قد قنعت
بهذه الحياة الجديدة حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ،

ورضيته لنفسها ، فلا سبيل الى مغالبتها عليها ، فقصرت عنها اطعامهم ، واقتطعت منها آمالهم ، وظلوا يلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها ، فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح ، وهي أن تلك الحادثة المحزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيهتها في صورتها ومرضها في البانير قد أثرت في نفسها تأثيراً شديداً ، وصوّرت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى ، فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها ، وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس لأنها تعيش من مال الدوق في نعمة لا يطمع طامع في أكثر منها ، وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتي بنعمن بنعمة الشرف في ظلال آبائهن ، فأعجبها هذا الخيال ولد لها ، وكثيراً ما بكت على الشرف قبل اليوم وحنّت إليه .



انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقرّاً ، فثار ما كان كامناً من داء مرعريت ، وعاد إليها تقهّتها وسماها ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لا تفارقها

يوماً حتى تعاودها أياماً ، فإن أملت بها لزمت سريرها لا تفارقه ،
وإن رَوَّحت ^(١) عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها
تطلب الهواء الطلق ، والجو النقي ، وربما ذهبت في بعض لياليها
إلى ملعب التمثيل لتتفرج ^(٢) مما هي فيه فتخلو بنفسها في مقصورتها
ساعة أو ساعتين ثم تعود إلى منزلها

وكانت لا تزال ترى في المقصوره المجاورة لمقصورتها كلما
ذهبت إلى الملعب فتى في زى أبناء الأشراف وشمالهم لا يزال
يخالسها النظر من حين إلى حين ، فينظر إليها إن أغضت عنه ،
ويُنْصِي عنها إن نظرت إليه ، ولا يلتقي نظرها بنظره حتى يتلَهَّب
وجهه حمرةً ، ويرفض جبينه عرقاً ، كأنما جنى جناية لا مَقِيلَ له
منها ، فلم تحفل به كثيراً ، لأنها لم تَرَفِ أمره شيئاً جديداً ، إلا
أنها كانت تعجب لسكونه وجهوده ، وطول إغضائه وإطرافه ،
ولتلك الغبرة من الحزن المنتشرة على وجهه ، وكأرا أكثر ما يدهشها
منه أو يعجبها أنه الفتى الوحيد الذى كان يبكى في ذلك المجتمع
لمنظر المشاهد المحزنة التى تُمثل على مسرح التمثيل ، لأنها تعلم أن
الفتيان الفرحين المقتبطين بشبابهم وصحتهم لا يحفلون بمناظر
الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفلوا بتمثيلها

(١) روح عه مس عه وإسايقه ومنه (روحى ياعد عى)

(٢) تفرج طلب ما يفرح عه

فانها لخالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة وكان الجو بارداً
مقشعراً إذا فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادت
تسقط عن كرسيها ضعفاً ووهناً ، فشعرت يدها تمسك يديها
فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى
بلغت عربتها فركبتها ، فشعرت بالراحة قليلاً فالتفت لتشكر
لصاحب تلك اليد يده فلم ترَ أمامها أحداً ، ورأت على بعد خطوات
منها انساناً منصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا انها تخيلات صورته
تخيلاً ، فعميت لأمره ومضت لسبيلها ، فواصلت إلى منزلها حتى
شعرت برعدة الحى تمشى فى أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة
أيام لاتفارقه حتى أبلت^(١) قليلاً فقدّمت اليها خادمتها بطاقات
الزيارة التى تركها لها بعض الفتيان الذين زاروها فى أثناء مرضها
تجملًا وتلوّمًا ، فلم تقرأ واحدة منها ، ثم حدثتها الخادم أن فتى
كان يأتى للسؤال عنها فى كل يوم مرة أو مرتين ولا يذكر اسمه ،
ولا يترك بطاقته ، وانه كان ينقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرته أنها
لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفتها بإبه فوصفته
فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمنت لو رآته فشكرت
له هذا الاخلاص النادر الذى لاعهد لها به فى أحد من الناس

جميعاً ، وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى ، فإِ لست أن جاء وكانت مرغريت جالسة في شُرقة المنزل المظلة على الطريق فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعوتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالتزول إليه واستدعائه إليها ففعلت فاضطرب لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرفضها ثم شعر بمكان مرغريت من الشُرقة فتلوّم ومشى وراء الخادمة حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها فركبته وانصرفت ، فدخل عليها فحياها ووجهه يرفض عرقاً ولسانه لا يكاد يُبين ، فدت إليه يدها فتناولها وقبلها قبلّة عرفت مرغريت سرّاً ما أودع فيها وهي العاملة بأسرار القبلات ، ثم أذنته بالجلوس فجلس فأنشأت تسأله عن نفسه ، وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها ، وتبتسم له فيما بين ذلك ابتسامات تألفه بها ، وتمسح عن قلبه ما ألم به من الروع ، فحدثتها أنه غريب عن باريس ، وأنه وقد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته « نيس » ليقضى فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلباً لتغيير الهواء ، وترويح النفس ، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه ، فسألته هل وجد المّقام حميداً هنا ؟ فصمت هنيهة ثم

نظر إليها نظرة منكسرة وقال : لا ياسيدتى ، قالت لماذا ؟
فارت بين شفثيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها فعاد إلى صمته
وإطرأه فأعادت عليه سؤالها فقال لها : هل تأذنين لى
ياسيدتى أن أقول لك كل ما فى نفسى ؟ فشعرت بما فى نفسه
قبل أن يقوله وقالت له : قل ما تشاء إلا أن تطارحنى حبك
وغرامك ؛ فأننى امرأة مريضة لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها
خالصة لا مؤونة فيها فأحرى أن لا أحتملها مثقلة بالحب والغرام ،
فاصفر وجهه اصفراراً شديداً ومد يده إلى دمة تترقق فى عينيه
فسحها ثم قال لها : ذلك ما يحزننى ياسيدتى ويكبنى ؛ وينص
على عيشى مذ هبطت بباريس حتى اليوم ، فأننى رأيتك فأحببتك
للنظرة الاولى ، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شىء ، وعلمت
أنك تعيشين منذ شهور قلائل عيشة لا مطمع فيها لطامع ، ولا
أمل لا أمل ، فائقطع أملى منك ، إلا أن حبى إياك لم ينقطع ، ثم
رأيتك بعد ذلك فى ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الذى نسجت
يد المرض على وجهك الجميل فاستحل حبى إياك الى رحمة وشفقة ،
وأصبحت أبكى أرسنك ، أكثر مما أبكى لحبك ، وأصبح كل ما
أتمنى على الله فى حياتى أن أراك بارئة ناعمة ، موفوراً لك حظك
من سعادة العيش وهنائه ، ثم لا أطمع بعد ذلك فى شىء مما

يطمع فيه المحبون المغرمون ، فأنا أقف الساعة بين يديك
لا لأطارحك الحب والغرام ، بل لأسألك أن تأذن لي بالوقوف
على بابك كلما جئت إليه لأسال خادمتك عنك ثم أمضى لسبيلي
من حيث لا ترين وجهي ، ولا تشعرين بمكاني ، فسرت في
أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحمى ، وخيل اليها انها
تسمع نغمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعها من قبل من
أفواه الرجال ، فنظرت إليه نظرة لا يسلم تأويلها أحد ثم قالت
له : انى آذن لك بذلك ياسيدى ، واشكره لك شكراً جزيلاً ،
بل آذنتك أن تزورنى كلما شئت على أن تقدي إلى صديقاً مساعداً ؛
لاحباً مغرمًا ، فانى الى الأصدقاء المخلصين ، أخرج منى الى
الحبين المغرمين ، ومدت إليه يدها فلم أنها قد أذنته بالانصراف
فقبلها وانصرف مسروراً مغتبطاً ، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها
فسقطت على وسادة بجانبها وقالت : رحمتك اللهم فقد أصبحت
أخشى أن أحبه

لقد أحبتته من حيث لا تدري ، فان الخوف من الحب هو
الحب نفسه ، بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثله من قبل ،
فاصبحت تستقبله في منزلها كل يوم ، وتأنس به وبجديته أنساً
كثيراً ؛ وتفضى إليه بذات نفسها كما يفضى الصديق إلى

صديقه ، وتقص عليه ماضيها وحاضرها لا تكذبهُ شيئاً ، ولا تكتم عنه أمراً ، ثم ترمى بها الأثر حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته ساعة ، ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لا مرٍ عرض له لم يتمكن من اخبارها به فزنت لا تقطاعه حزناً عظيماً ، وذهبت بها الوسوس والظنون كل مذهب ، ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسوس ليس من شأنها قبل اليوم ، فقلقت لذلك قلقاً شديداً ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على رأس الهوة ولم يبق إلا أن تتردى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عاجلت فيها من نوازع النفس وجواذبها ما عاجلت ، حتى أصبح الصباح وقد أضمرت في نفسها أمراً جاء أرمان في صباح اليوم الرابع فوجدتها طريحة فراشها وفي عينيها حمره البكاء والسهرة فارتاع لمنظرها وقال لها : لعلك سهرت بالأمس كثيراً يا سيدتى أو بكيت ، فاني أرى في عينيك أثر واحد منهما ، قالت : هما معاً يا أرمان ، قال : وهل حدث شيء جديد من بعدى ؟ قالت اجلس بجانبى قليلاً أيها الصديق أحدثك حديثاً قصيراً ربما كان آخر حديث بينى وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا ترانى ، فذعر ذعراً شديداً وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه فلم يستطع أن يقول شيئاً ،

وسقط بجانبها واهيّا متضمضعا ، وظلّ ينظر إلى وجهها نظرة
 المتهم إلى وجه فاضيه ساعة الحكم فاقبلت عليه تحمّده وتقول
 عرفتُك يا أرمان فعرفتُ فيك الرجل الكريم الذي أحبنى
 لنفسى أكثر مما أحبنى لنفسه ، والصديق الوفى الذى امتزجت
 فى قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان ، فأوى الىّ مريضةً
 حينما جفأتى الناس لمرضى ، وعاش معى بلا أمل حينما انقطع
 الناس عنى ، لا تقطاع أملهم منى ، فاضمرت لك فى قلبى من
 الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ، وسعدت بك سعادة
 لم أشعر بمنزلها فى يوم من أيام حياتى الماضية ، ولكن الله الذى
 كتب لى الشفاء فى لوح مقاديره من ضجعة المهد ، الى رقدة
 اللحد ، لم يشأ أن يتمنى طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن
 يسلبنيها وشيكاً ، فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة
 الشريفة المقدسة التى كنت أستمدّ منها سعادتى وهنائى قد أخذت
 تستحيل فى أعماق قلبى إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها
 لنفسى ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائى وبلائى ،
 فخادعتُ نفسى عنها حيناً ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى
 كان ما كان من انقطاعك عنى هذه الأيام الثلاثة فسمرتُ
 لنيابك بحزن ألقفتنى وأرمصنى ، ومكّ علىّ جميع عواطفى ومداركى ،

ولو تثنت أن أقول لقلت إنه أبكاني بكاءً كثيراً ، وأسهرني
سهرًا طويلاً ، فعلمتُ وأأسفاه أننى قد أصبحت عاشقة ، وأن
هذا الذى يختلج فى قلبى ، ويقيمنى ويقعدنى ، إنما هو الحب والغرام ،
فتضيت بالأمس اللبل كله أفكر فى طريق اخلاص من هذه
النكبة العظمى التى نزلت بى فلم أجد أحداً يخلصنى منها سواك ،
فأما أسألك يا أرمان باسم الصداقة والود الذى تعاقدا عليه
بالأمس ، بل باسم الدموع الى طالما كنت تسكبها رحمة بى
واشفاهما على ، أن تنقطع عن زيارتى منذ اليوم ، وأن تسافر إلى
أهلك الليلة إن استطعت ، ثم لا تعدنى الى بعد ذلك ، فسأحمل
نفسى على الصبر عنك ، حتى يمن الله على راحة اليأس منك

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فاذا هو جامد مصفر كأن
وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه شاخصتان إليها تنحوص
العين الكفيفة القائمة ^(١) التى تنظر الى الشئ ولا تراه ، وبعد
لاى ما ^(٢) استطاع أن يحرك شفثيه ويقول لها بصوت خافت
كصوت الضمير : وما ذا يخيفك من الحب يا ممر غربت ؟

فالت يخيفنى منه العقاب الأليم الذى أتوقعه على ما اقترفت

(١) العين القائمة التى دهمورها وقتت حدقها صحيحة

(٢) الاى الحمد والمشة وما هنا رائدة

من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي ، فأتنا معشر النساء الساقطات
مقدّر لنا في علم الله وغيبه ألا تزال نعبث بعقول الرجال وقلوبهم ،
ونبتليهم بصنوف العذاب وألوان الآلام ، حتى يغضب الله لهم ،
ويغار عليهم ، فيبتلينا بحب نحمل فيه من العذاب جميع ما حملناه
الناس ، ونشقى فيه شقاء لا ينتهي إلا بانهاء حياتنا ، فموت بين
يدى أنفسنا مهملات مغفلات لا ينمأنا ناع ، ولا ييكى علينا
باك ، فهذا الذي أخافه وأخشاه ، وأحب أن يسبق إلى أجلى
قبل أن أراه

أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا أرمان ، فأنت أجل من ذلك
عندي ، ولكني أعلم أنك باق في هذا البلد إلى أجل ، فإذا
انقضى الأجل سافرت إلى أهلك سفيراً لا تملك بعده العودة
إلى ، فان أيت إلا البقاء يجانبني حال أهلك يني وبينك لأنهم
قوم شرفاء يضنون بك وبشرفك أن تلوثه امرأة مومس بعارها
وآثامها ، فلا تجد لك حينئذ بداً من الخضوع لهم ، والنزول على
حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة ، أطلب السبيل
إليك فلا أجده ، والسلو عنك فلا أستطيعه ، وربما حاولت العودة
إلى كنف ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إلى إحساناً كثيراً
فطر دني من بين يديه عقاباً لي على خيائتي عهدته ، وكفري

بنعمته ، فلا أجد لي بداً من الرجوع الى حياتي الأولى حياة
الشروع والآثام ، والشقاء والآلام ، التي أبغضها بغض الأرض
للدن ، وهناك العذاب الدائم ، والويل الطويل

إني أعلم يا أرمان أنك تحبني حباً جما ، وأنت ستكابد في
ابتعادك عني عذاباً كثيراً ، ولكني أعلم أن لك قلباً شريفاً يحتمل
العذاب في سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلي فانك
أقدر مني على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعوك الله كلما سألته
أن يمنحني الصبر عنك ، ويرزقني راحة النفس وسكونها من بعدك ،
ان يمنحك من ذلك مثل ما يمنحني ، فاعله يرحمنا جميعاً

فلم يكن له جواب على هذا كله سوى أن نهض من مكانه
متضعضاً منهالكاً ومشى الى الباب يسوق نفسه سوقاً حتى بلغه
فوقف على عتبة والتفت الى مرغريت وألقى عليها تلك النظرة
التي بليقها المحتر على أهله في آخر لحظات حياته وقال لها :
الوداع يا مرغريت ، ثم مضى ، فما زال شخصه عن عينيها حتى
نهضت من فراشها هائمةً مخنبلّةً واندفعت الى الباب كأنما تريد
اللاحاق به ، ثم تراجعت ، ثم حاولت ذلك مرة أخرى ، فأدركها
رشدتها وهداها ، فعادت تبكي وتنتحب وتُعول إعوالاً شديداً
وتدور في أنحاء الغرفة دوران المفجوعة الشاكل وتقول : أرجعوه

كانما بناءً بانيه لهما فاكثرياه وتقلت مرغريت اليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان اليه من أثاث ومتاع ، ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً راعماً هنيئاً لا تضطرب في سمائه غيمة ، ولا تمر بصفحته غبرة ، ولا يكدره عليهما مكدرٌ من خواطر الشقاء ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين الى قمة الجبل ، أو منحدرين الى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئةً وذُهباً ، أو جالسين تحت شجرة ثمراء تظلاهما من لفحة الهجير وتضمهما اليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من بُسُط النباتات الممتدة في تلك البطحاء الفسيحة يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال المائل في الشواطىء والمياه ، والأخاديد والوديان ، والغابات والحرّجات ، والكهوف والصخور ، والغيوم والسحب ، والأضواء في تشكيلها وتلونها ، والظلال في تحوّلها وتنقلها ، وفي رؤوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفي الصخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفي الحركة التي تقوم في كل يوم مرتين بين جيشى الأنوار والظلمات فينتصر في صدر النهار أولهما على ثانيهما ، ثم يُدال في آخره لتانيهما على أولهما ، حتى اذا جاء الليل عادا الى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه ، ورشفاً من كل ثمر من ثغور السعادة رشفةً

تسرى مسراها في قلبها ، حتى تصيب صميمه

مرتبها على ذلك عام كامل هوكل ما استطاع ان يختلساه
من يد الدهر في غفلته ثم اتبته لهما بعد ذلك وويل للسعداء
من اتبناه بعد اغفائه فقد نصب أو أوشك أن ينضب ما كان
في يد أرماني من المال وكان في يده الكثير منه فكتب الى أبيه
يطلب اليه أن يبعث اليه ما يستعين به على البقاء في باريس أياماً
أخرى لأنه لا يزال مريضاً شاكياً لا يستطيع السفر ، وكذلك
كان يفعل من حين الى حين ، فلم يأت الرد ، فافلته ذلك قلقاً
شديداً ، وظل يختلف الى المدينة في كل يوم يسأل في فندق
« تورين » الذي كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن
الكتاب الذي ينتظره فلا يجده فيعود حزينا منقبضاً حتى اذا
وصل الى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه تطلق وتبسم كأنه
لا يكتم في نفسه هراً ، ولكن عين مرغريت أقدر من ان يعجزها
النفاذ الى اعماق قلبه فنفذت اليه فعرفت سره فكاشفته به وقالت
له : لا يحزنك شأن المال يا أرماني فان عندي منه ما يكفي للعيش
معا سنين طوالاً ولم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها
ومنع عنها رفته مذ عرف قصتها مع أرماني وعلم أنها خاتمه وخاست
بعده ، بل كانت مدينة بجمال كثير لبعض تجار الجواهر والياب ،

بل أصبح دائئوها يتقاضونها دونهم بعد ما علموا ان الدوق فاطمها
ونقص يده منها ، ولكنها خاطرت بكلمتها بخاطرة دون ان تفكر
في عاقبتها ، فأكرّ ارمان ذلك وأعظمته ، وأنف منه أنفاساً شديداً
وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسافر الى « نيس »
ليأتى منها بالمال الذى يريد ، فأزعجها عزمه هذا ازواجاً شديداً
وخافت عاقبته ، فثبت بين يديه تستعطفه وتسترحه ، وتبذل له
من ضراعتها ورجلها في سبيل بقائه معها ، أكثر مما بذلت قبل
اليوم في سبيل رحيله عنها ، حتى أذعن واستقاد ، ورضى بالتي لم
يكن يرضى بمثلها لولا لطفة الحب ، وضراعة الدموع ، وقد أضمر
في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه في الميراث الذى ورثه من
أمه مكافأة لها ، ووفاء بحقها ، فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بد
من أن تمد يدها الى جواهرها وذخائرها ، فانسأت تباع منها
قطعة بعد أخرى ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بتفقة بيتها ، من
حيث لا يعلم ارمان ، ومن حسب لا يبالي هي بذلك ، لعلها أن
السعادة أتمن من كل شيء في الحياة ، واسنمرا على ذلك برهة طويلة
حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعة من ساعات أنسهما
وصفائهما خادم فندق « تورين » الذى كان ينزله ارمان في باريس
وقال له ان والده قد وصل الساعة وأنه ينتظره في الفندق



قال دوفال لولده : لقد كذبت على كثيرًا يا أرمان وما كنت قبل
اليوم كذابًا ولا خادعًا ، ورضيت لنفسك بحياة كنت أضنّ
الناس بنفسك على مثلها من قبل ، ومزقت يديك ذلك البرقع
الجميل من الحياء الذي كان لا يزال مُسبلاً على وجهك ، وأصبحت
تبتذل في العيش مع امرأة عاهرٍ كل ما لها من الشأن عند نفسها
وعند الناس جميعًا أنها تُقاي من تُقايات الرجال ، وفضلة من
فضلات الفساق ، وفُتات المائدة العامة التي يجلس عليها الناس
جميعًا صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا وقم الساعة لتُعيد نفسك
للسفر معي الى « نيس » فلست بتاركك بعد اليوم في هذا البلد
ساعة واحدة

فرفع أرمان رأسه الى أبيه وقال له بصوت هادئ مطمئن :
لا أستطيع يا أبتاه .

فنظر اليه أبوه نظره شزراء وقال له : وتلك سيئة أخرى ،
فقد أصبحت لا تعبأ بي ، ولا تبالي بمخالفة أمرى ، من أجل
امرأة سافطة لا شأن لها معك إلا أن تعجب بعقلك ، وتسلبك
مالك وشرفك ، وتفسد عليك حاضرَكَ ومستقبلك

قال يا أبتاه إنها ليست بمأثرة ولا خادعة ، ولكنها تحبني

حباً جاً لم يحبه أحدٌ من قلبها أحداً ، وأحسبُ أنى إن فارقتها
قلتها ، وجنيتُ عليها جنايةً لا يفارقنى الندم عليها حتى الموت
قال ذلك ما يتخذه به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات
قلوبٌ يُحِبُّنَ بها ، بل لهنَّ ألسنةٌ يَخْتَلِنُ بها الرجالُ ، ويسبِلُنَّها
حُبّاً بين بعضهم وبعضٍ ، حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير
عندها ، وصاحب الحظوة لديها من دون أصحابه جميعاً

قال ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهي لا تحب
أحداً غيرى ، بل لا تعرف أحداً سواى ، فهي تعيش عيشةً تشبهُ
عيشة النساء الشريفات ، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهنَّ ،
لأن الخليفة التى تخلص خليلها ، أشرف من الزوجة التى تخون
زوجها ، وأخشى أن أفاقرقتها أن تثور فى نفسها ثورة من ثورات
اليأس تدفعها الى تلك الحياة الأولى حياة الشر والفساد ، والسقاء
والعذاب ، بعدما استنهذت نفسها منها

قال وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف فى هذه الحياة
اصلاح النساء العاسدات ؟

قال ذلك خير له من أن تكون وظيفته افسادهنَّ ، فان
الأشراف فى هذا العصر يفخرون بافساد النساء الصالحات ،
واستدراجهنَّ الى مواطن الفسق والفجور ، واصلاح المرأة

الفاسدة ، أدنى الى الشرف من إفساد المرأة الصالحة

قال لقد أصبحت كثير الرحمة يا ارمان ؟

قال لِمَ لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها في الناس من يعولها من ذى قرابة أو ذى رحم ، وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ، ولا يتحلل عنها ، إلا أنه ينام عنها حيناً ، ويستيقظ أحياناً ، فهي تكابد الألم مرة ، والخوف من الألم أخرى ، ولا عزاء لها في حالتها إلا هذه السعادة التي تنوهمها في الحب ، وترى انها نائمة بها ، فان فقدتها فقدت كل شيء في الحياة وعظمُ حزنها وبؤسها ، وثقلت عليها وطأةُ الداء حتى تأتي على البقية الباقية من حياتها ، فدعنى معها يا أبتاه عاماً آخر أو عامين أهونَ عليها فيهما شقاءها ، فربما كان ذلك آخر ما قدّر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك اليك هادئ القلب ، ساكن الضمير راضياً عن نفسي وعن خطي ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويهونُ وجدى عليها كلما ذكرتها انى لم أخنها ، ولم أغدر بمهدا

فأطرق دو قال هنيهة كأنما يعالج في نفسه همّاً معتلجاً ثم رفع رأسه ونظر الى ولده نظرة تشبه نظرة العطف والرحمة وقال له : لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدتُ من الألم

لفراقك قبل اليوم ، وقد تركتُ أختك ورأى تنديك وتبكي
 عليك صباحها ومساءها ، وتحنّ الى لقاءك حنينَ الظمى الى
 الورد ، واعلم أن جميع ما تمتدّ به عن نفسك في هذا الشأن لا
 يغنى عنك ولا عنى شيئاً يوم يعول الناس كلماتهم التي لا بد قائلوها
 غداً وربما قالها كثير منهم قبل اليوم « إن أرمان دو قال سلالة آل
 تاليراند يعيش مع امرأة مومس في بيت واحد » فعُدّ الى نفسك
 يا بنى ، واستلهم الله الرشداً يلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على
 عظامك ، ودع هذه الحياة الساقطة التي نجها لمن ليس له همة
 مثل همتك ، ولا مجد وبيت مثل مجدك وبيتك ، وانى تاركك
 الساعة وحده وذاهبٌ عنك لبعض شأنى لتخلو بنفسك رهة
 تستردّ اليك فيها ما عذب عنك من صائب رأيك ، ثم أعود
 اليك بمد قليل لأسمع منك الكلمة التي أرجو أن تكون شفاء
 نفسى ورواء غلى

ثم تركه ونزل فشى الى قهوة قرية من الفندق فكتب فيها
 لبعض الناس كتاباً ، ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في
 باريس ، فزارهم زيارةً طويلةً ، فلم يعدّ الى الفندق حتى أظلم الليلُ
 فرأى أرمان لا يزال فى مكانه ، فسأله ماذا رأى ، فلم يجبه إلا
 بدموعه فحدر على خديه انحدار القطر ، على أوراق الزهر ،

وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه، ويكشف له من خبيثة نفسه ما كان يكتمه عنه من قبل ويقول : والله يا أبتاه لو علمت أنى أستطيع الحياة بدونها لفارقتها براً بك ، وإيثاراً لطاعتك ، ولكنى أعلم أنى ان فعلتُ فقد وضعتُ أمرى فى موضع الضرر^(١) وخطرتُ بعلى أو بجيأتى غاطرة لا أعلم ما ذا يكون حظى فيها ، وأخسبهُ أسوأ الحظين ، وأنحس النجمين ، ولو ان أحداً من قبلى استطاع أن يدفع هواء عن قلبه ، أو يححو ما قدر له فى ضحيفة قضائه ، من شقاء الحب وبلائه ، لفعلتُ مثله ، ولكنه بلاء بليت به ليحزن أريد لي ، فلا رأى لي فى رده ، ولا حيلة لي فى اتقائه ، ولقد نزلت هذه الفتاة من نفسى منزلة هى منزلة الحياة من الجسم ، والغيت من التربة القاحلة ، فان كنت لا بد أخذى معك تغذ معك جسماً هامداً لا حراك به ، أو نبته ذاوية لا حياة فيها ، فوضع أبوه يده على عاتقه وقال له : قم الآن يا بنى واذهب لشأنك ، وعد الى صباح الغد لأتم حديثى معك ، وأرجو أن نكون فى غدك خيراً منك فى أمسك ، فخرج عززوا مكنثباً يمشى مشية الذاهل المشدود لا يرى ما أمامه ، ولا يشعر بما ورائه ، حتى رأى عربة بين يديه فركبها الى بوجيفال حتى بلغها ، فلم ير

مرغريت في شرفة البيت تنتظره كما دتها ، فدخل عليها غرفتها
 فرآها مُكبّةً على منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ،
 فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة ، فلمح عند
 نهوضها كأن في يدها رسالة تضم عليها أصابعها فظنها بعض تلك
 الرسائل التي كان يرسلها إليها المُرَكِّز « جان فيليب » من حين إلى
 حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأسرياء كان يحبها في عهد
 الأول حباً شديداً ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت
 عنه لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض
 فيها عليها حبه وماله ، ويُمَنِّها الأمانى الحسان في عودتها إليه ،
 والصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها بمجرد اطلاعها عليها أو
 على عنوانها ، فلم يحفل إرمان بذلك وتقدم نحوها فقبلها ، فقالت
 له ماذا جرى يا إرمان ؟ قال أرادنى أبى على السفر معهُ فأبيتُ ،
 وبكيتُ بين يديه كثيراً فلم أتل منه منالاً ، وقد أمرنى بالعودة
 إليه غداً ولا أريد أن أفعل ، لأنى لا أحسب حظى منه في الغد
 خيراً من حظى منه اليوم ، وقد أصبحت نفسى تحذنى بمصيباته ،
 والبقاء هنا على الرغم منه ، لأنى أعلم أنى قد تجاوزت السن التي
 يحتاج فيها الأبناء إلى ارتداد الآباء ، ولأنى لا أعرف أحداً بين
 الناس يستطيع أن يرسم لى خُطة سعادتى في هذه الحياة كما

أرسمها لنفسى ، ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أنها ونظر إليها فاذا هى مطرقة صامتة ، واذا وجهها أصفر مربرد كأنما قد نهض الموت عليه غباره ، فقال ما بك يا مرغريت ؟ قالت أشعر بألم شديد فى رأسى ، وأريد الذهاب إلى مخدعى ، فأخذ يسدها إليه ، وجرحها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ثم نامت فى مخدعها نوماً مشرّداً مذعوراً تخلله أنات طويلة ، وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح ، فقالت له أرى لك يا ارمان أن تعود الى أهلك كما أمرك ، وأن تعاود استراحته واستعطافه ، لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت عن بلوغه بالأمس ، وإنى لا أكون راضية عن نفسى ، ولا هاتئة بحياتى ، ان لم يكن أبوك راضياً عنك ، ولم تزل به حتى أذعن لها وقام الى ثيابه فارتداها ، ثم مشى إليها وضمها الى صدره ضمةً شديدة كأنما يضمن بها أن ينتزعها من بين ذراعيه متزعجاً ، ثم قبلها وقال لها : الى اللساء يا مرغريت ، فلم تردّ عليه تحيته حتى أبعدها عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : أرجو أن يكون كذلك ، وسقطت على كرسى بين يديها باكية منتحبة ولم يزل ارمان سائراً فى سبيله حتى وصل الى باريس فذهب الى فندق تورين ، فلم يجد أباه هناك ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتاً

طوبلاً حتى عاد بعد منتصف النهار وقد رقت قليلاً تلك الغمامة
السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس ، فتقدم إليه ارمان
خياه ، فقال له لقد فكرت ليلة الأمس في أمرك كثيراً يا بني
فرايت أنني قد قسوت عليك وغلوت في أمرك غلواً كبيراً ،
ونظرت الى مستأثك بعين أقصر من العين التي كان يجب على أن
أنظر بها إليها ، فان للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة ،
وحالاً خاصة به لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا
يختلف فيها سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء ، وأن
تعاشر الفتاه التي تحب كما تريد ، على أن تعيدني بالعودة الى في اليوم
الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها اتقطع حياة أو موت ، فاني
ان أمنت عليك شرها ، فلا آمن عليك شر غيرها من النساء ،
فاستعير ارمان فرحاً وسروراً ، وأهوى على يد أييه يقبلها ويبللها
بدمه وبعه ويقول : أعيدك بذلك يا أبتاه وعداً لا اخلفه ولا أخيس
به ، ولك حكمك ما تشاء ان رأيتني بعد اليوم كاذباً أو حائثاً ،
ثم نهض يريد الذهاب فقال له أين تريد ؟ قال أريد الذهاب الى
مرغريت لأبشرها بهذا النبأ ، وأمسح عن قلبها ما ألم به من
الروح منذ الأمس ، فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها
ارمان ، ثم دار بوجهه ليغالب في عينيه دمة كادت تغلبه على

أمره ، ثم التفت إليه وقال له ابق معي اليوم يا بني فربما سافرت غدًا ولا أعلم بعد ذلك متى أراك ، فبقى معه اليوم كله حتى جاء الليل فاستأذنه في الذهاب الى بوجيفال فأذن له فياه وخرج فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه فأنحدت من جفنه تلك الدمعة التي كان يغالبها من قبل وقال : وارضته لك أيها الولد المسكين



حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التي يرجوانها في مستقبل حياتهما وطار بها اليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال فأدهشه أن رأى البيت مظلمًا ساكنًا لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يترأى فيه ظل ، فشى الى الباب فراه مُرتجًا ، فوضع أذنه على خصاصه فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعًا شديدًا ويهتف باسم مرغريت مرة ، واسم « بْرودَنْس » أخرى ، فلم يُجبه أحد ، فقال في نفسه لعلها ذهبت الى ييتها في باريس لبعض شأنها واستصحبت خادماتها معها ويوشك أن تعود الآن ، فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هذه من الليل فلم تعد ، فخدمته نفسه بالعودة الى باريس للتفتيش عنها في مظان وجودها ، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقًا غير الطريق التي تسلكها في عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ،

ويقوم أخرى ، وقف حيناً ويتمنى أحياناً ، ويجلس حيناً ، ويحس حيناً ،
حديث يمر بخاطر القلق الرتاع إلا حديث خيانتها وعندها ، ولم
يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تهب في فجوة
الظلام فساء ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في
نفسه ما لمرغريت بد من شأن ومالي بد من المصير إليها ، وللتعذر
في الشأن الذي شغلها ، وكان القلق والسهر قد أخذها مأخذها من
جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ، فشى في طريقه إلى باريس
يتروح تروح الشارب التمل حتى وصل إلى منزل مرغريت وقد علا
صدر النهار ، فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ، ووقف
بفأسه على جذع شجرة من أشجار الحديقة يشذب أغصانها ،
فسأله عن مرغريت ، فقال له إنها حضرت هنا بالأمس في
منصرف النهار ووراءها خادمتها تمسك يدها حقيبة كبيرة ،
فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت وقد لبست ثوباً
من أثواب الولا ثم فأعطتني كتاباً وقالت لي إن جاء هنا السيو
أرمان للسؤال عني فأعطه إياه ، ثم ركبت عربتها هي وخادمتها
وانصرفت ، قال ألا تعلم أين ذهبت ؟ قال أحسب أنني سمعتها
تقول للحوذي عند ركوبها « إلى منزل المركيز جان فيليب » فجعد
أرمان في مكانه جود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ،

ومرّ بخاطرهم مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يد مرغريت بعد عودته اليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته وعاد إليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرّ نظره عليه إصراراً فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعاداً شديداً ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر فالتقى ظهره عليه ، وأعاد قراءته فإذا هو مشتمل على هذه الكلمات « هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمان ، فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلا أنني هكذا أردت لنفسى والسلام »

فعلّق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفاً ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يُشذب أغصانها ويتنقى في صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامى يعجبه لحنها ، ولا يفهم معناها ، فانه كذلك إذ سمع صوت جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت ، فرأى أرمان صريعاً معترفاً على عتبة الباب ، ففزع فزعاً شديداً وظنّها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقي من دقات قلبه ، فاطمأن قليلاً وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضج بمائها وجهه ويدلك

براحة يده صدره وصدغيه ، حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالساً بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال في يده ، فدار بعينه حول نفسه فرأت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عينه منذ خمسة عشر شهراً يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ، ورسمت على ثغره أول قبلة من قبل الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : ما أبعد اليوم من الأمس ، وأنشأ يبكي بكاء الطفل الذي حبل بينه وبين ثدى أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزبه عن مصابه ، ويهونه عليه ، حتى هدأ قليلاً ، فأمره أن يستدعى له عربية ففعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب وقال للسائق « إلى فندق تورين » فسارت به العربية اليه حتى إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد صرّت بجانبه عربية فخمة مرور البرق الخاطف تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى ثم راجع صورتهم في خياله فاذا هما جان فيليب ومرغريت ، وكانت مركبته قد وصلت به إلى الفندق فدخل على أبيه هائماً محتبلاً فقال مادهاك يا بنى ؟ قال « قد خاتني يا أبتاه » قال ذلك ما أنذرتك به يا أرمان من قبل

ثم انقضى النهار وجاء الليل فقضاه أرمان ساهراً في مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض في

نفسه جميع أطوارها وشؤونها ، فلم تبقَ حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل في مراجعته إلى الأمس واليوم الذي قبله ، فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كمادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المريكز في يدها عند ما دخل عليها غرفتها وضنّها به ضنّاً شديداً ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضها عن التبسّط معه في الحديث بعد ما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خائرة لا تستطيع البقاء معه ، وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثاني إلحاحاً شديداً في العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ، ولا هائلة بسعادتها ، إذا لم يكن أبوه راضياً عنه ، فاستنتج من هذا كله أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال ، وأن أباه إما أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتّر عليه الرزق تقثيراً ؛ ملته واجتوته ، وفكرت في طريق الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المريكز فكان هو طريق خلاصها

ولم يزل هائماً ما شاء في تصوراته وأوهامه حتى غلبته عيناه

فجمع قليلاً ؛ ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه وقال له : لي عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها ، وأريد أن أشتريها منك بخضوعي لك ونزولي على حكمك مدى الدهر فيما سررتني أو ساعني ، فهل لك أن تبليغنيها ؟ قال وما هي ؟ قال أريد أن تعطيني الساعة خمسة عشر ألف فرنك ، قال وما تريد منها ؟ قال أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسي حتى من دونك ، فنظر إليه أبوه نظرة اللئيم بما في نفسه ولم يعاوده وأعطاه مكوكة بالمال الذي أرادها فأخذها وأرسلها إلى مرغريت ، وأرسل معها كتاباً طويلاً ختمه بهذه الكلمة « أمّا وقد عرفت أنني كنت أعيش مع امرأة عاهر مأجورة لا عهد لها ولا ذمام فها هي أجره لياليك الماضية مرسلة إليك »

ثم خرج ليعد نفسه للسفر فمضى اليوم كله خارج الفندق ثم عاد إليه في دُبُر النهار فوجد فيه كتاباً باسمه ففرض ختامه فإذا الأوراق التي أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فتنعه أبوه من ذلك ، وقال له قد وعدتني ألا تخالفني في أمر فلا بد لك من الاذعان ، فأذعن ثم سافرا معاً تلك الليلة إلى نيس وكذلك قضى الله أن يفترق ذانك الصديقان الوفيان ،

والعاشقان المخلصان ، فماد الفتى الى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة الى حياتها الأولى التى كانت تأبأها الإباء كله ، وتخافها الخوف الشديد ، وفى نفس كل منهما من الوجد بصاحبه ، والحسرة عليه ، ما لا تُبليه الأيام ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام



الاشقياء فى الدنيا كثيرٌ وأعظمهم شقاءً ذلك الحزين الصامت الذى قضت عليه ضرورة من ضرورات الحياة ، أو أزمة من أزمات الخوف أو الرجاء ، أن يهبط بالآلام وأحزانه الى قرارة نفسه فيودعها هناك ، ثم يُغلقَ دونها باباً من الصمت والكتمان ، ثم يصعد الى الناس باشاً الوجه ، باسم الثغر ، متطلقاً مهتلاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همماً ولا كدّاً

ذلك كان شأن مرغريت بعد عودتها الى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة الذى تعيش بهامع نفسها ، أما حياتها مع الناس حياةً ضاحكةً لائبة ، وثابة طائرة ، تضىء المجامع والمحافل ، وتعلأ الأنظار والأسماع ، فذاضنها تخدعها ، وخلا لها وجه الليل ، مرّت أمامَ عينيها صورُ تلك الساعات السعيدة التى قضتها بجانب أرمان ، ثم ذكّرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بُعد

الشمس عن يد متناولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوام
لا تعرفهم ، ولا تجد في نفسها لذة الأُنس بهم ، ثم لا تجد لها بدامن
التعجب اليهم ، واللصوق بهم ، والتجمل لهم بما يريدون وبشتهون ،
فتقبل الأفواه التي لا تشتهيها ، وتمتنق القامات التي لا تطيق
رؤيتَها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ،
وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها ، وتضحك
ضحكات السرور من قلبٍ بالك ، وتُنشد أناشيد الهناء من فؤاد
محترق ، فكانها في يد الناس المودُّ في يد المغنى ، يُقطع أوتارَه
ضرباً ، ليَطربَ بنغمته ، أو الزهرة في يد المقتطف ، يمسر أوراقها
عصرًا ، لينعم بشذاها ، فتبيجها ذِكْرَى ذلك الماضي السعيد وهذا
الحاضر الشقي . فتطلق السبيلَ لفراتها وعبراتها ، يصعد منها ما
يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتفى نفسها فتقوم إلى خزانة
ملابسها فتستخرج منها صورةً تضعها بين سحرها ونحرها ، ثم
تأوى إلى مضجعتها فتجد رَدَ الراحة في صدرها ، لأنها صورة
أرمان

ولم تزل تكابد من شقا. هذه الحياه الساقطة وآلامها مالا طاقة
لمثلها باحتمال مثله حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعد ما
نام عنها حيناً من الدهر فهزل جسمها ، وشحَبَ لونها ، وغاض

ماء ابتساماتها ، وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأنُ نفسها عن
 شأن الركين فلم يلبث أن ملأها وفارقها ، واستبدل بها خيراً منها ،
 ثم اختلف إليها من بعده الأَخلاء فكان شأنهم معها كشأنه ،
 لا يلبث الواحد منهم أن يعرفها حتى يهجرها ، فكسدت سلعها
 في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في ثم
 موطن قديمها ، وخت منها الجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها
 وحديثها ، وأعوذها للمال إعوذاً شديداً فدت يدها الى ما كان
 باقياً عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يفر بدنيها ، فطلبت
 المعونة من كثير من أصدقائها الماضين فأرسل إليها القليل منهم
 القليل منها فلم يُغن عنها شيئاً ، واختلفت إليها جرائد الحساب
 يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعتهم عنها حيناً ثم عجزت ، فحجزوا
 جميع مقتنياتنا وذخائرنا ، وأثاث بيتنا ورياشته ، ولوئموا في
 مقاضاتها لوئماً ضاعف حزنها ومرصنها ، وقضى على بقية ما كانت
 تضره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها . فنسيت العالم
 خيرَه وشره . والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر
 إلا في أمر واحد تقوم وتقعده ليلاً ونهارها ، وهو أن ترى
 أرماني ساعة واحدة قبل موتها ثم تذهب إلى ربها
 ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمةً واحدة منفارقتها ولا

كتبَ إليها فنهضت تحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها
فكتبت إليه هذا الكتاب

« تعال إلى يا أرمان راضياً كنت أو غاضباً ، فاني مريضةٌ
مُشرقةٌ ، وأحب أن أراك قبل موتى لأفسي إليك بسر الدنب الذي
أذنبتهُ إليك فيما مضى ، والذي لا تزال واجداً على من أجله حتى
اليوم ، فلعلك تعفو عني في ساعتي الأخيرة فيكون عفوك ورضناك
هو كل ما أتزوّدُهُ من هذه الحياة لقبرى ، واذكر يا أرمان أن
أول عاطفة جمعت بينى وبينك ، وألفت ما بين قلبى وقلبك ،
كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هي الفتاة المريضة المسكينة
التي رحمتها بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها ، تدعوك اليوم
أن ترحمها وتعطف عليها وإن تكن قد سلوتها ، أما كتابك الذي
كتبتهُ إلى قبل سفرك فقد اغتفرت لك كل ما فيه حتى قولك انى
كنت كاذبة فى حبك . طامعة فى مالك ، لأنى أعلم أن المرأة التي
تكذبُ الناس فى حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من يصدقها
إذا صدقت فيه ، حتى الذى أحبته ، وعدل من الله كل ما صنع »
ثم لبثت تنتظر حضوره أياماً طويلاً فلم يأتها فأحزنها ذلك حزناً
سداً ، وساء ظنّها به ووقع فى نفسها أنه قد سلاها واطرحها .
وأصبح لا يعبأ بها ، ولا يبالي بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو

شقاها ، وكانت مخطئة فيما ظنت ، فان أرمان لم يطلع على الكتاب الذى أرسلته إليه ، لأنه مدفونها فى العام الماضى وسافر الى نيس لم يستطع البقاء فيها إلا أياماً قلائل ثم مَلَكَهُ الضجر وأحاطت به الوحشة ، وصافت فى وجهه مذاهب السلوى ، فاستأذن من أبيه أن يسافر الى بعض بلاد الشرق ترويحاً عن نفسه ، وتفريحاً من كربته ، فأذن له . فسافر الى الاسكندرية فأقام فيها بضعة أشهر كان يكتب أباه فيها ثم تركها وأخذ يتنقل فى أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير به الضجر الى غيره ، فاقطعت رسائله عن أبيه فأصبح لا يعلم مكان وجوده ، فلما أرسلت مصر غربت إليه كتابها فى نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه ، ومصر غربت لا تلم بشيء من ذلك ، فحزنت خلية أمها حزناً شديداً ، ودب اليأس فى قلبها ديب الموت فى الحياة ، ووقع فى نفسها انها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيء حتى من هذه الأمنية التى بقيت فى يدها من بين جميع آمالها الضائعة ، فتكر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت الى صمت طويل لا تقول فيه خيراً ولا شراً ، وأصبحت تنظر الى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر الى شيء تنكره ولا تعرفه ، فربما دخل عليها طبيبها وهى فى أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألماً ،

أو سمعت ضوضاء الدائنين وصياحهم في فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون ، وكانت اذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها الى بوجينفال فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الداهية ، وكان لا يزال باقياً على الصورة التي تركته عليها يوم فارقه ، ومرت بغرفته وقاعاته ، وجلست في كل مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبلت جميع آثاره وبقاياه ، ولثمت الكأس التي كان يشرب بها ، والزهرة التي كان يحبها ، والقلم الذي كان يكتب به ، والكتاب الذي كان يقرأ فيه ، فاذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، فربما طار بها خيالها الى ذلك العهد القديم ، فتتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته في نيس ، أو يبدئها ما يضره لها في نفسه من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهاني ، وتستشعر في نفسها لذة لا يشعر بمنزلها إلا المتقون في جنات النعيم ، ثم تفتح عينيها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والافراد ، فتبكي ماشاء الله أن تفعل ، ثم تعود الى بيتها في باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي أرمان في مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها ، كأنه حاضر بين يديها يراها ويسمعاها .



مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

ارمان

لَمْ تَكْتُبْ إِلَيَّ لَمْ وَتَأْتَنِي ، كَأَنَّمَا ظَنَنْتُ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسْتَعِيدَ
مَعَكَ عَهْدِي الْمَاضِي ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ ، فَلَوْ رَأَيْتَنِي لَرَأَيْتَ
امْرَأَةً ذَاهِبَةً مُذْبِرَةً لَا تَصْلُحُ لَشَأْنٍ مِنْ شُؤُونِ الْحَيَاةِ ، وَلَمْ يَبْقَ
فِيهَا مِنْ صُورَتِهَا الْمَاضِيَةِ إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنَ الزَّهْرَةِ السَّاقِطَةِ عَنْ
غَصْنِهَا بَعْدَ مَا عَصَفَتْ الرِّيحُ بِأَوْرَاقِهَا ، وَكُلُّ مَا كُنْتُ أُرِيدُهُ مِنْكَ
أَنْ أَرَاكَ بِجَانِبِ فَرَاشِي فِي سَاعَتِي الْأَخِيرَةِ لِأَعْتَذِرَ لَكَ عَنْ ذَنْبِي
الَّذِي أَذْنَبْتُهُ إِلَيْكَ ، ثُمَّ أَنْظُرَ إِلَيْكَ نَظْرَةً وَدَاعٍ أَغْمَضَ عَلَيْهَا
جَفْنِي وَأَذْهَبَ بِهَا إِلَى قَبْرِ

مَا أَنَا بِجَائِئِنَةٍ يَا أَرْمَانُ وَلَا خَادِعَةٍ ، فَإِنَّ الرِّسَالَةَ الَّتِي رَأَيْتَهَا
فِي يَدِي يَوْمَ عُدْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَقَابِلَةِ أَيْلِكَ لَيْسَتْ رِسَالَةَ الْمُرَكِّزِ كَمَا
ظَنَنْتُ ، بَلْ رِسَالَةُ أَيْلِكَ نَفْسَهُ وَصَلَتْ إِلَيَّ مِنْهُ قَبْلَ وَصُولِكَ إِلَيَّ
بِوَجِيْفَالٍ بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهَذَا نَصَبُهَا الَّذِي لَا يَزَالُ عَالِقًا بِذَهْنِي
حَتَّى السَّاعَةِ

« سيدتى »

أريد أن أقابلك غداً فى منزلك فى الساعة العاشرة صباحاً
فى شأن خاص بى وبك ، وأريد ألا يكون أرماني حاضراً تلك
المقابلة ، ولا عالمياً بها ، ولا بأنى أرسلت هذه الرسالة اليك ، ولى
من حسن الراى فىك ما يُطمئنى فى أن يكون ما سألتك إياه
سراً بينى وبينك حتى ملتقى والسلام دو قال ،
فلما قرأتها علمتُ ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرتُ بما
وراءها ، بل علمت ما دار بينه وبينك من الحديث ، وأنت امتنعت
عليه حتى يش منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابى ، فحدثنى
نفسى أن أرفض مقابلته وأن أكشفك بكل شئ . ثم استحييتُ
من ذلك ، وأكبرتُ فى نفسى أن لعمد على رجل شريف كأبيك
فى كتمان سر صغير كهذا السر فلا يحدثنى عند ظنه ، وطمعتُ
فى أن أنال منه عند المعاينة ما يطمع فى أن يناله منى ، فكتمتُك أمر
الرسالة ، وكتمتُك ما فى نفسى منها ، ولم أكن كاذبة فى شكائى
وألى حينما قلت لك فى تلك الليلة إننى لا أستطيع البقاء بجانبك
وسألتك أن تقودنى الى مخدعى ، فقد قضيت فى فراشى بعد ما
فارقتك ليلة لم أقض منها فى جميع ما مر بى من ليالى الهموم
والأحزان . حتى أصبح الصباح فألححتُ عليك أن تذهب لمقابلة

أيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبتَ إليه لا تراه ، ولا تتنفع بمقابته
 إن رأيته ، ولكني خفت أن يزورني فيراك عندي فأصغرُ في
 عينه ولا أشدَّ عليَّ من ذلك ، وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصل
 إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه فاستأذنَ عليَّ فأذنتُ
 له فدخل فرأيتُ في عينيه جرةً من الغضب تتهب التها بآ قلم
 أحبل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يجتئ بيده ولا بلسانه ،
 ولم يدنُ من مكاني خطوة واحدة ، وكان أول ما استقباني به قوله
 « ماذا تريدن أن تصنعي بولدي أيتها السيدة ؟ » وظلَّ ناظرًا
 إليَّ نظرًا جامدًا ساكنًا لا يَطرِف ولا يَحتلج ، فعميت لمدخله
 الغريب ، ونظراته المترقمة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضتُ في
 نفسي امتعاضًا شديدًا حتى كدتُ أقول له ولا أكتمك ذلك ،
 نَذَكِرْ يا سيدي أنك في منزلي وأنا لم أدعك إلى زيارتي ، بل
 أنت الذي دعوت نفسك بنفسك ، ثم ذكرتُ مكانه منك
 فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجواب على سؤاله ، فشئ يضرب
 الأرض بمصاه وقدمه حتى دنا مني وألقى عليَّ تلك النظرة التي
 اعناد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء
 العاهرات وقال لي « لقد أُنقِ ولدي عليك جميع ما كان بيده من
 المال ، وكان في يده الكثير منه ثم جميع ما أرسلتهُ إليه بمد ذلك ،

وقد أرسلتُ إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في استطاعته أن يُمدِّكَ بأكثر مما أمدَّكَ ، ولا في استطاعتي أن أستنزل له من السماء ذهباً يُمطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم . أو لا يحتاجون الى أنفسهم ، أما أنا فاني حاجة الى ولدي ، لأنني لم أرزق ولدًا سواه ، ومن كان بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضيق به مذهب من مذاهب العيش ، ولا يلتوى عليه مأرب من مأرب الحياة ، فشت كلماته في نفسى مشى الحثي في عظام المحموم ، وخيل إلى أن هذا المائلَ أُمَامِي لا يحدثني ، وإنما يجزعني السم بيده تجريمًا ، وشعرتُ بذلة لم أشعر بمثلا في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجلدتُ واستمسكتُ ورددتُ نفسى على مكروهاها . وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : لا يا سيدى إننى أحب ولدك ولا أطمع فيه . ولو كان ما يعنينى منه الطمع في ماله لفارقتُه منذ ثلاثة شهور ، أى مذ خلت يده من المال . وأصبح لا يجد السبيل إليه . بل لفارقتُه قبل ذلك . لأن الذين لا يزالون يساوموننى في نفسى من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصأتُ به حتى اليوم أفضل منه حالاً وأكثر غداً . على أن ولدك لم ينفق على من هذا المال الذى تذكره إلا التزّر القليل ، وربما أنفق باقية على نفسه ، ولو

استطعتُ أن أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكنى كنت
أُضِنُّ به أن يداخل نفسه ما يريها أو يؤلمها فقبلت منه هداياه
الصغيرة التى كان يقدمها إلى من حين إلى حين ، إرعاك عليه ،
ولإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال اتقل
إلى يدي لأصبحتُ غنية موفورة ، لا أحمل همًّا من هموم العيش ،
ولا أعانى من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم ، فأننى لو
تبينتَ أمرى امرأة فقيرة معوزة لا أملك من متاع الدنيا إلا
حلاى ومركبتى وأثاث بيتى ، ولينها كانت خالصة لى ، فقد امتدت
يد الضرورة إليها منذ عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سلعة فى يد
التجار أو رهينة فى يد المرايين ، ولا أعلم ما يأتى به الغد ، وإن
أيتَ إلا أن تعرف ذلك بنفسك فسأطلمك على ما كتمته عن
الناس جميعاً حتى عن ولدك ، ثم قمت إلى خزانة أوراقي فجثتهُ
منها بالصكوك والوثائق المشتتة على بيع ما بعتُ من جواهرى
وخيولى وأثاث بيتى ورهنِ مارهنْتُ منها ، فظل يقلبها بين
يديه ساعة ، ويتأمل فى تواريحها طويلاً ، ثم طواها وأعادها
إلى مطرقاً صامتاً لا يقول شيئاً ، ومد يده إلى كرسى بين يديه
فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأت
فى نفسه تلك الثورة التى كانت تعتلج فيها وقت دخوله ، وطارَت

عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلمه من قبل ، فعدت
إلى حديثي معه أقول : على أنى يا سيدى غير شاكية ولا ناقمة ،
تقدم ربى من نوب الأيام وأرزائها ما محام من نفسى كل شهوة من
شهوات الحياة ، وأنسانى جميع لذائد الدنيا ومفاخرها ، فأصبحتُ
لا أبالى بما تأتى به الأيام وما أتت ، وسواء لى الفقر والغنى ،
والحلى والعطل ، ومسكنى القصر ومسكنى الكوخ ، وركوب
المركبة وركوب النعل . وكل ما أرجوه من حياتى وأضرع الى الله
واليك فيه أن أرى أرمان يحانى يقاسمى هم الحياة وبؤسها ،
ويعينى على شدتها ولأوائها ، حتى يقضى الله فى أمرى بما هو
قاض ، فان كان فى الأجل فسحة قضيتها فى شكرك وحمدك
والإخلاص لك فى سرى وعانى ، وإن كانت الأخرى كان
آخر ما أنطق به فى ساعتى الأخيرة أن أدعوك الله تعالى
ضارعةً مبهلةً أن يبارك لك فى نفسك وفى أهلك ، وأن يسبل
ستره الضافى عليك فى حاضرک ومستقبلک

ثم جنوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت فى
تلك الساعة عن أن أملك من دموعى ما كنت مالكة من قبل ،
فظللت أبكى وأقول

رحماك يا مولاي إني امرأة بالسة مسكينة قد قضت على

بعض نكبات اليمش في مبدل حياتي أن أقف على رأس تلك
الهوة التي يقف على رأسها النساء الجائعات فسقطت فيها كارهة
مرغمة ، ثم أردت نفسي على الرضا بتلك الحياة التي قدرها الله
لي فلم أستطع ، فأصبحتُ في منزلة بين المنزلتين ، لا أنا شريفة
أنعم بيمش النساء الشريفات ، ولا ميتة القلب أسعد سعادة
الفتيات الساقطات ، وقد وجدتُ في ولدك الرجل الوحيد الذي
أحبني لنفسى أكثر مما أحبني لنفسه ، ومنحني من وده وإخلاصه
ما ضن به على الناس جميعاً ، فأنستُ به أنسا أنساني سقوطي
وعاري ، وحَبَّب إليَّ الحياة بعد ما أبغضتها وبرمتُ بها ، وكدت
أقضى على نفسي باخلاص منها ، فلا تُحرمني جواره . ولا تفرق
بينى وبينه ، فانك إن فعلت أشقيتني وبرحتَ بي ، وملأت
حياتي هماً وكدّاً ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبني
سعادتك وهناك على شقاء امرأة مسكينة مثل

ماذا يكون مصيرى غداً إن أصبحت وحيدة منقطعة في
هذا العالم لا صديق لي فيه ولا معين ؟ أأعود إلى حياتي التي
أبغضها وأخشأها فأعود إلى جرائي وآلامي ؟ أم أقتل نفسي
ييدي فراراً من شقاء الدنيا وبلائها فأختم حياتي بأقبح ما ختم
امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فامدد إلى يدك

البيضاء واتقذنى من هذه الهوة العميقة التى لا يستطيع أحد أن
ينقذنى منها سواك

أنا أعلم أنك فى حاجة الى ولدك ، وأنتك أولى به من كل
مخلوق على وجه الأرض ، ولكنى أعلم أنك شغوق رحيم لاتأبى
أن تصدق على امرأة مريضة يائسة مثل بساعات من السعادة
تتعلى بها فى مرضها الذى تكابده حتى يوافيها أجلها

لا أسألك ياسيدى مالا ولا نشبا ، ولا عرضا من أعراض
الحياة ، بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معى ، فان فى بقاءه
بقاء حياتى وسعادتى ، فتصدق بهما على "إنيك من المحسنين
وهنا شعرت كأنه يتحرك فى كرسيه يخفق قلبى خفقانا شديدا
ثم رفع رأسه ونظر الى نظرة أبرد نارا ، وأقصر شعاعا ، من
نظرة الأولى وقال ومن أين تعيشان ؟

قلت عندى بقية من جواهرى وحلاى سأبيعها وأعيش
بثمنها معى فى زاوية من زوايا باريس . عيش الفقراء المقلين ، لا
يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة
نفتى بها عن كل سعادة فى هذا العالم وهناء

قال ذلك هو الشقاء بعينه ، فان الحب نبات ظلى تقتله أشعة
الشمس الحارة ، وكل سعادة فى العالم غير مستعمدة من سعادة

المال أو لاجئة الى ظلالها فهي كاذبة لا وجود لها الا في الأدمغة
والرؤوس

أنما اليوم سعيدان لأن في يدكما مالا تعيشان به ، ولأنكما
تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهضبة العالية ، بجانب
هذه البحيرة الجميلة ، فاذا خلت يدكما من المال ، وحرمتما هذا
النعم الذي تمنعان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن
الحب ولذاته ، وسرى الى نفسيكما الضجر والملل ، وربما امتدت
تلك السامة بينكما الى أبعد غايتها

إن للحب فنونا من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان
أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تنال منه الصروف
والغير ، ولو عقلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض
من أعراضها الطارئة ، تأتي به شهوة ، وتذهب به أخرى ، ولا
يذهب به مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها ، فإن
النفس تطلب حياتها وبقائها ، قبل أن تطلب لدائذها وشهواتها
أنا أعلم من شأن ولدى يا سيدتى ما لا تعلمين ، وأعلم أنه
لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التي تظنين ، وهو
فنى فقير لا يملك من الدنيا الا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن
أمه لا تبنى عنه ولا عنك شيئا ، وما أنا بذى ثروة طائلة أستطيع

أَنْ أَحْفَظَ لَهُ بِهَا زَمَنًا طَوِيلًا هَذَا الْعَيْشَ السَّعِيدَ الرَّغَدَ الَّذِي
يَعِيشُهُ الْيَوْمَ فِي بَارِيسَ ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَّا أَنْ يَعِيشَ بِمَالِكِ ،
وَهُوَ مَا لَا أَرْضَاهُ لَهُ وَلَا يَرْضَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَاسْمَحْ لِي يَا سَيِّدَتِي أَنْ
أَقُولَ لَكَ : إِنْ جَمِيعَ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَرَزَايَاهَا أَهْوَنَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِ مِنْ
أَنْ يَقُولَ النَّاسُ إِنَّ خَلِيلَةَ أَرْمَانَ دَوْقَالَ قَدْ بَاعَتْ جَوَاهِرَهَا
وَحَلَاهَا الَّتِي أَهْدَاهَا إِيَّاهَا عَشَاقُهَا الْمَاضُونَ لَتُنْفِقَ ثَمَنَهَا عَلَيْهِ

سَاحِبِي يَا بَاتِي ، وَاعْتَظِرْ لِي حَدَثِي وَخَشَوْنَتِي ، فَإِنَّ كَثِيرًا
جَدًّا عَلَيَّ وَالِدٍ شَيْخٍ ضَعِيفٍ مِثْلِي أَنْ يَرَى وَلَدَهُ الَّذِي وَضَعَ فِيهِ كُلَّ
أَمَالِهِ وَأَمَالَ يَتِهِ يَهْوِي أَمَامَ عَيْنَيْهِ فِي هَذِهِ الْهَوَاةِ السَّحِيقَةِ الَّتِي لَا
قَرَارَ لَهَا دُونَ أَنْ يُطِيرَ قَلْبُهُ خَوْفًا وَهَلَمًّا

إِنَّهُ مَذْعَرُوكَ نَسِينِي وَنَسَى أُخْتَهُ ، فَلَا يَذْكُرْنِي وَلَا يَذْكُرُهَا ،
وَقَدْ مَرَضْتُ مُنْذُ شُهُورٍ مَرْضًا مُشْرِفًا فَكُنْتُ إِلَيْهِ أَنْ بَاتِي
لِيَعُودَنِي فَلَمْ يَفْعَلْ ، وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ كِتَابِي ، أَيْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
وَسْطِكَ أَنْ أَمُوتَ وَلَا أَرَاهُ ، وَلَوْ تَمَّ ذَلِكَ لَذَهَبْتُ إِلَى قَبْرِى
بِحَسْرَةٍ لَمْ يَحْمِلْ مِثْلَهَا فِي صَدْرِهِ رَاحِلٌ عَنِ الدُّنْيَا مِنْ قَبْلِي

أَنْتِ صَادِقَةٌ يَا سَيِّدَتِي فِي قَوْلِكَ إِنَّهُ لَمْ يُنْفِقْ عَلَيْكَ جَمِيعَ
مَا كَانَ بِيَدِهِ مِنَ الْمَالِ ، لِأَنِّي عَلِمْتُ بِالْأَمْسِ أَنَّهُ قَامَرَ مُنْذُ عَهْدٍ
قَرِيبٍ ، وَخَسِرَ فِي مَقَامَرَتِهِ كَثِيرًا كَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تَعْلَمِينَ شَيْئًا

من ذلك ، فإِذْ يُؤْمِنُنِي إِنْ أَنَا تَرَكْتُهُ فِي هَذَا الْبَلَدِ إِلَّا يَسْتَمِرَّ فِي
هَذِهِ الْقَوَايِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي خَطَا الْخَطَوَاتِ الْأُولَى فِي طَرِيقِهَا ،
وَالْأَيَّ يَخْسِرَ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ خَسَارَةً عَظِيمًا لَا أَجْدَى بَدَأَ مِنْ
أَنْ أَخْذَ يَسْدَهُ فِيهَا ، فَأَقْدَمَ إِلَيْهِ ذَخِرَ شَيْخُوخَتِي ، وَمَهْرَ ابْنَتِي ،
فَهَلَاكَ نَحْنُ الثَّلَاثَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ

مَنْ لَكَ يَا بُنْيَةَ أَنَّهُ إِنْ طَالَ عَهْدُهُ بِكَ لَا يَمْلِكُ ، وَلَا تَمْتَدَّ
عَيْنُهُ إِلَى امْرَأَةٍ سِوَاكِ ، فَتَكُونَ خَجِيعَتُكَ فِيهِ غَدًا شَرًّا مِنْ
خَجِيعَتِكَ فِيهِ الْيَوْمَ ؛

وَمَنْ لَهُ أَنْكَ لَا تُضِيقِينَ بِمِيشَةِ الْوَحْشَةِ وَالْوَحْدَةِ ذُرْعًا فَتَحْنِينَ
إِلَى حَيَاتِكَ الْأُولَى حَيَاةَ الْأَنْسِ وَالْاجْتِمَاعِ ، وَالْغَبْطَةِ وَالسَّرُورِ ،
وَهُوَ فَنَى غَيُورٍ مُسْتَطَارٍ قَرِيبًا أَنْفَتَ نَفْسَهُ أَنْ يَزَاحِمَهُ فِيكَ مَزَاحِمٌ ،
وَرَبَّمَا أَمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى ذَلِكَ الَّذِي يَزَاحِمُهُ بِشَرٍّ فَتَنَازَلًا فَأَصَابَتْهُ
مِنْ يَدِ مُنَازِلِهِ ضَرْبَةٌ تَقْضِي عَلَى حَيَاتِهِ وَتَفْجَعُنِي فِيهِ ؟

كَيْفَ يَكُونُ مَوْقِفُكَ يَا سَيِّدَتِي غَدًا إِنْ نَقَذَ فِيهِ هَذَا السَّهْمُ
مِنْ الْقَضَاءِ أَمَامَ هَذَا الْأَبِ الثَّائِلِ الْمُسْكِينِ إِذَا جَاءَكَ يَسْأَلُكَ
عَنْ دَمِ وَلَدِهِ ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ آلَامُ نَفْسِكَ وَلَوْ أَعْجَبَهَا أَمَامَ مُشْهَدِ
بَكَائِهِ وَنَحْبِهِ ؛

ثُمَّ ارْتَعْشِ ارْتِعَاشًا شَدِيدًا ، وَظَلِّ نَظْرَهُ حَائِرًا مُضْطَرِبًا ، كَأَنَّمَا

كان يُخَيَّل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك للمنظر الذي يتحدث عنه ثم
سكن قليلاً وانظر الى نظرة هادئة مملوءة عطفًا وحنانًا وأنشأ يقول :
مرغريت : أنتِ أعظمُ مما كنتِ أظن ، وأفضل كثيرًا من
هؤلاء النساء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدتُ
فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفئدة
الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، ولو قُسم الشرفُ
بين الناس على مقدار ما تشتمل عليه نفوسهم من الفضائل لكان
نصيبك منه من أوفر الأنصبة وأوفاهـا

لا أنسى لك يا مرغريت ما دمتُ حيًّا كتمانك أمر الكتاب
الذي أرسلته إليك ، واحتفاظك بسرّه في ساعةٍ تنفرج فيها
الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكونك وإغضاءك وأنت في منزلك ،
وموضع أمرك ونهيك ، أمام حدتي وخشونتي وجنون غضبي ،
ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدي من
حيث لا يعلم ، ودفء له ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها

لقد كانت ضحيتك التي قدمتها لولدي بالأمر عظيمة جدًا ،
واليوم جئت إليك أطلب منك أن تعدى ضحية أعظم منها لابنتي ،
ولا معتمدًا لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا أشرف نفسك
وفضيلتها

لقد تركتُ سوسانَ يا مرغريت ورائي تتقلب على فراش
المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ ، الغض ، لأن
خطيبها الذي تحبه حباً جماً قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا
تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن
والتقدير ، حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد
نالت منها منالاً عظيماً ، ووصلت بها الى درجة الخبل والهذيان ،
فسمعتها تهتف باسم خطيبها مرات كثيرة ، وتبكي كلما جرى
ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلتُ موضع دائها ،
وذهبت في اليوم الثاني الى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب
ولده من أمر ابنتي ، وقطعته عن زيارتها ، فذكر لي سبباً غريباً
لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فان أذنت لي حدثك حديثه
نخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحبست بالشر يدنو مني رويداً
رويداً ، ألا أني تماسكت وقلت له نعم آذن لك يا سيدي

قال لقد أجابني الرجل على سؤاله بقوله « إن أسرتي أسرة
شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلاً من جميع وجوهها ، وقد
عرفتُ أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك في باريس ،
وأنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومساً معروفة هناك معاشرة
تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمع لنفسي أن يكون

مثل ولدك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وفسولها^(١) ، صهراً
لولدى ، ولا عاراً على يتي ، فاستقبلت خشونته وجفائه بصبر
واحتمال ، لأن الخوف على ابنتى ، شغلنى عن الغضب لنفسى ،
وقلت له أوافق أنت مما تقول ، فأدلى إلى بما أقنعنى ، فلم أرَ
بدأً من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسألته أن لا يبت فى
أمر الخطبة شيئاً حتى أسافر الى باريس وأعود منها ويعلم أنى
قد عجزت عن أمر ولدى

ذلك ما حملنى على المجئ الى باريس ، وهذه هى قصى التى
جئت أعرضا عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن
الناس جميعاً حتى عن ولدى أرمان فانظرى ماذا تأمرين ؟

وهنا أطرق برأسه طويلاً ثم رفعها ، فإذا عبدة تترقق فى
عينيه ، واذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته ممابه ، وأعظمت
مصابه حتى نسيت مصابى يجانبه ، وساد السكون بيننا ساعة
لا يقول لى شيئاً ، ولا أدرى ماذا أقول له ، حتى هدا نأثره قليلاً
فدّ يده الى يدي فأخذها بين ذراعيه ، وعاد الى حديثه يقول

مرغريت : إن حياة ابنتى بين يديك فامنحني إياها تتخذى
عندى يداً لا أنساها لك حتى الموت

إننى لا أستطيع أن أراها تموت بين يدي ، ولو تم ذلك
 لمت على أثرها حزناً وكدماً ، وضمتها في يوم واحد وقبر واحد
 لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ولا يزال أثره باقياً
 في نفسى حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى
 في ابنتها وصورتها الباقية لى من بعدها
 انى أحبها حباً جماً ، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها
 حزينة أو مكتئبة ، فكيف أستطيع أن أراها تعالج سكرات الموت ،
 إنك لا تعرفين يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها
 كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها . ولقديتها بما تستطيعين ، رأفة بها ،
 وإشفافاً عليها

إنها جميلة جداً ، وبيضاء ، مثل الكوكب ، وطاهرة طاهرة
 الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاصحى لهذه الحياة الغضة الزاهرة
 بالبقاء والسعادة ، فانها لا تستحق الشقاء

إنها اليوم تعيش بالأمل الذى أودعته قلبها يوم سفرى ، فإن
 عدت إليها بالخيبة ، عدت إليها باليأس القاتل ، والقضاء النازل
 أنت تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك
 مخلصه في حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعى ما يصنع المحبون المخلصون ،
 وضحي حبك من أجله ومن أجل مستقبله ، فالأفضل ذلك
 من أجله ، فافعليه من أجل

لقد قلت لي إنه الرجل الوحيد الذي أحبك لنفسك ،
أكثر مما أحبك لنفسه ، فبإدليه هذا الحب ، بل كوني خيراً منه
فيه ، وليكن عزاؤك عما تلاقيه بعد فراقه ، من حزن وألم أنه قد
أصبح سعيداً من بعدك ، وأنت قد أنفدت من يد الموت فتاة
مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخاً حزينا

وهنا اختنق صوته بالبكاء فبيط عن كرسيه وجثا بين يدي
وقال بنعمة المشرف المحتضر

« ارحميني يا مرغريت ، واشفقي على ضعفي وشيخوختي ،
وتصدّني على بمستقبل ولدي ، وحياة ابنتي »
ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فألقى رأسه على
كرسيه الذي كان جالساً عليه واقعجراً باكياً



آه لو رأيته يا أرمان في موقفى هذا ورأيت لوعتى وتفجّعى
ودعوى النهمرة على خدى انهمار الديمة الوطفاء رحمة بأبيك
واشفافاً عليه :

لقد كان يتكلم قسّيل مداًمى مع حروفه وكلماته ، كأنما هو
ينشد مرثيةً محزنة أنا البكية عليها فيها
ان العظيم عظيم فى كل شىء حتى فى أحزانه وآلامه ، فاقد

كان يُخِيلُ الىَّ وأبوك يبيكي بين يديّ ويتنحب ان كل دمة من دموعي تَسْتَنْزِلُ غضب الله على الأرض وكل زفرة من زفراته تلهب بها صفحة السماء

لقد أكبرت في نفسي جداً أن يمشو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة ساقطة مثلي ، واستحييت من ذلك حياءً تمنيت معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمي فسُخِنت فيها أبداً وبناتاً هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه وفي مصابه ، وفي قصته التي قصها عليَّ ، وفي الشأن الذي لي فيها ، فملتُ أني قد أصبحتُ شؤماً على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أيها وابنها وابنتها ، فتقلتُ نفسي عليَّ ، وسُئِجَ منظرها في عيني ، حتى خيلَ إليَّ أنها لو كانت حاضرة في يدي لرميتُ بها من حالي إلى حيث لا يجمعني وإياها مكان بعد اليوم ، ثم قلتُ في نفسي : إن حياتي الماضية التي قضيتها في الشرور والآثام قد قَطَعْتُ عليَّ طريقَ الشرف ، فلا حق لي في أن أطمع في حياة الشرفاء ، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الأثم الذي اقترفته في ماضي قد أثمرته وحدي ، فلا بد لي أن أستقلَّ بحمل عاقبته دون أن أُلْهِمَها على حالي أحد غيري ، فإن كان مقدراً لي أن أموت موت النساء الساقطات ، فذلك لأنني امرأة ساقطة ، أو أن ألقى

في مستقبل حياتي شقاءً وآلاماً ، فذلك لأن المستقبل نتيجة
الماضي وصفحته الثانية

هنا ذكرتُك يا أرمان ، وذكرتُ فراقك وكيف أستطيعه ،
وذكرتُ أني أنا التي سأنول قتلَ نفسي بدى ، لأن الطريقَ
التي لا طريقَ غيرها إلى مفارقتك ، وبِلوغِ رضا أهلك ، أن
أطاعك وأغضبك ، وأظهر أمانك بمظهر الخائنة الفادحة ، وربما
اضطُرتُ إلى الاتصال بأحد غيرك على مرأى منك ومسمع ،
حتى تنصرف عني انصرافَ بأسٍ مغلوبٍ على أمره ، من حيث
لا يكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعتُ على نفسي
بين فراقك وغضبك في يوم واحد ، وذكرتُ أن لا بد لي متى
فارتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضها وأمقتها ، لأن
الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبتهُ إليه حتى
اليوم ، ولأنني في حاجة إلى بسطةٍ من العيس أستعين بها على
معالجة مرضي ، ووفاء ديني ، فدارت هذه الخواطرُ في رأسي
ساعةً ، وطالت دَوْرُها حتى كادت تغلبني على أمرى ، ثم وقع
نظري على وجه أهلك اللبلب بدووه فنبجلدتُ ، وجمعتُ أمرى ،
ومضيتُ قدماً لا أُلوى على شيء مما ورائي
لقد كان شديداً على جداء أن أفارقك يا أرمان ، ولكن كان

أشدَّ علىَّ منه أن أرى أبوك يسكى بين يديَّ ، وأن أكون سبباً
في موت أختك أو شقتها

اننى أحب يا أرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس ،
ولقد كان يُحِيلُ إلىَّ وأبوك يحدثني عن أختك وشقتها اننى أراها
من خلال دموعي طريحة فراشها وهي تمدُّ يدها إلىَّ صارعة متوسلةً
وتقول : ألقيني يا سيدتي وارحمي ضعفي وشبابي ، فأجدُ لكلماتها
من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن يشعر به أحد في العالم سواي
اننى حرمت في مبدأ حياتي سعادة الزوجية وهناءها ، ولقيت
بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يهبج
حزنى ، ولا يستثير كامنَ لوعتي ، مثلُ أن أرى فتاة بين الناس
محرومةً منها مثلي

اننى أحب ، وهي نحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداءً
عن الأخرى فلأمت أنا فداءً عنها ، لأنها أختك ، ولأنها لم
تتترف في حياتها ذنباً تستحق بسببه الشقاء

وكنْتُ كلما ذكرتُ أنها ستصبح سعيدة هائلة من بعدى ،
وتراءى لي شبحها وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل ،
وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبي فرحاً وسروراً ،
وهان على كل شيء ، في سبيل غبطتها وهناءها

نم إن الضربة التي سأستقبلها شديدة جداً ، لا يقوى عليها قلبي ، ولكنني سأحملها بصبر وسكون ، لأن أباك سيصبح راضياً عني ، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سرّ ضيقتي ، فتحبني فوق ما أحببتني ، ولأن اختك ستصبح سعيدة ومفتبة بعيشها وجها ، وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان

جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت ساعة شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضى وذوئ وآتيا ، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدى

قت من مكانى كأننى أترع نفسى من الأرض انزعاً ، ومشيت إلى أباك كما يمضى الحان^(١) إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه ، وأخذت يده ، فاستفاق من غشيت ونظر إلى ذاهلاً مستدوهاً فقلت له : أتعقد يا سيدى اننى أحبّ ولدك ؟ قال نعم ؟ قلت حباً هو متعنى ما تستطيع امرأة أن تحب ؟ قال نعم ، قلت وأن هذا الحب هو كل آمالى وسعادتى وما أملك فى الحياه ؟ قال نعم يا بُنىتى ، قلت قد ضيقت من أجل ابنتك فعُد إليها وبشرها

(١) الحان الذي حل هلاكه

بسماعة المستقبل وهنائه ، وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم
ترك في يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك ،
تموت الآن من أجلك ، فاسألي الله لها الرحمة والغفران

فهلل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر
والثناء إلا أفضى بها إلي ، فأنساني سروره واعتباطه ألم الضربة
التي أصابت كبدي ، واستحال حزني واكتنابي إلى راحة
وسكون ، فحمدت الله على أن لم ير في وجهي في تلك الساعة ما
ينقص عليه سروره واعتباطه

وهنا شرعت بحركة عند باب الغرفة فالتفت فإذا « برودنس »
تشير إلي يدها ، فذهبت إليها فأعطتني كتاباً جاء به رسول
البريد فقرأت عنوانه فإذا هو بخط المركيز « جان فيليب »
فعلت ما يتضمنه قبل أن أراه ووقع في نفسي أن الله قد أوحى
إلي بما أفعل ، فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبي كأنني أخاف
أن يعترض لي في طريقي ما يزعزع عزمي ، وهناك قرأت
الكتاب وكتبت لصاحبه بطاقة صغيرة هذه الكلمة « سأ نعيشي
عندك الليلة » ثم أعطيتها لبرودنس لتلقيها في صندوق البريد ،
وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته ، قلت له : إن أرمان
لا يعلم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين تلقاه ،

وسأكتبُ إليه كتابَ مقاطعةٍ لا يشك في أني صاحبةُ الرأي فيه ، وأن لا يدلك في ذلك ، وسيعلم اليوم أو غداً انني قد اتصلتُ برجل غيره فیری أنني قد خنتهُ وغدرتُ بهده فلا يجد له بداً من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه مني ، وربما تألم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيبلى حبي في قلبه ، كما يبلى كلُّ حب في كل قلب ، غير أن لي عندك طليبةً واحدة لا أريد منك سواها فهل تسمع لي بها ؟ قال نعم أسمع لك بكل شيء ، قلت انني امرأة مريضة مشرفة ، وإن العلة التي أكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه ان تأذن لأرمان في اليوم الذي تعلم فيه أنني قد أصبحتُ على باب قبري أن يأتيني لأراه وأودعه الوداع الأخير ، وأعتذر له عن ذنبي الذي أذنبتهُ إليه ، حتى لا أخسرَ حبه واحترامه حيةً وميتةً ، فنظر إلى نظرة دامعة وقال : وارحمته لك يا بُنتي ! انني أعذك بما أردتِ وأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، ثم حاول أن يعرض علي شيئاً من المعونة فأبيتُ ذلك إياه شديداً ، وقلت له : لم أبع نفسي ياسيدي بيعاً ، ولكنني وهبُها هبةً ، فأخذ رأسي بين يديه وقبلني في جبیني قبلَةً أبويةً كانت خير جزاء لي على ضحيتي التي ضحيتها وودعني ومضى

فما أبعد إلا قليلاً حتى قُتُّ إلى خزانتي جُمعتُ ثيابي وما
 بقي لي من حلاى ووضعتها في حقيبتى، وسافرت مع برودنس إلى
 باريس، وذهبتُ إلى منزلى فيها فكتبتُ إليك فيه ذلك الكتابَ
 الذى تعلمه، والله يعلم كم سكبتُ من الدموع وكم وقف قلبي بين
 كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتممتُهُ، فأعطيتُهُ لحارس المنزل
 وأوصيته أن يعطيه لك عند مجيئك، ثم ذهبتُ للوفاء بوعده المراكز
 أما حياتي مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقصَّ عليك منها
 شيئاً سوى أن أقول لك : إنه لم يَرَقِ المرأة التى كان يتخيلها،
 ويمنى نفسه بها، ولم أر فيه الرجل الذى يؤنسنى، ويمزج نفسى
 بنفسه، فافترقنا، فأصبحتُ لا أعرف لى فى العالم صديقاً صادقاً
 ولا كاذباً

هذه قصتى يا ارمان كما هى، وهذا ذنبى الذى أذنبته إليك،
 فهل ترى بعد ذلك انى خائنة أو خادعة ؟
 قلبي يحدثنى اننى سأموت قبل أن أراك، وأملئ يُخيل الى
 ان ما فى نفسك من الموجدة على لا يستمر إلى ما بعد الموت،
 وانك ستعود الى باريس فى الساعة التى ينعاى لك فيها الناعى
 لتزورَ قبرَ تلك المرأة للمسكينة التى تولتُ سمادة قلبك وهنائه
 برهةً طويلة من أيام حياتك ثم خرجتُ من الدنيا فارغة اليد

لئن كل شيء حتى من حبك وعطفك، وربما
 بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك حتى
 إلى قبرها، فهذا الكتب لك هذه المذكرات، وأرى كيف
 برود أس، لعك قروها في مستقبل الأيام تنتظر إليها
 إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراعة
 فيصدق ما فيها فتعفو عني، فينير عفوك ظلمات قهري، ويؤنس
 ونشة نفسي



٣ يناير سنة ١٨٥١

أين أنت يا ارمان، أنت بعيد عني جداً، بعيد يحسبك
 وقلبك، لأنك لم تحمل كتابي الذي كتبتك فيه
 لزيارتك وسام اعترافي الأخير إلا لأن ما كان في نفسك من
 العتب والموجدة على قد استحال إلى نسيان وإغفال، فأصبحت
 لا تذكرني كما يذكر الحب حبيبة، ولا تعطف علي كما يعطف
 الصديق على صديقه، فليكن ما أراد الله، ولتدم لك تلك السعادة
 التي تنعم بها بين أهلاك وقومك، فاني غير واجدة عليك، ولا
 ناقة منك شيئاً ولا حاملة لك في نفسي إلا الحب والاخلاص
 والرضا بكل ما أتاني وما تدع

لى عدة أيام لم أرَ فيها أحداً من الناس ، لأن الطيب منعى من الخروج ، ولأن أصدقائى الذين كانوا يعرفوننى فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتى بإرسال بطاقاتهم إلى مع خادمى ، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرّون من أمر يخيفهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة ، فاذا ظفروا بها طاروا فرحاً وسروراً ، وان حرموا منها عادوا أسفين محزونين

ولا أدرى لِمَ لا يقطعون بطاقاتهم ، كما قطعوا زياراتهم ، فان كانوا يظنون انهم سيرونى بينهم فى مستقبل الأيام صحيحة الجسم ، طيبة النفس ، أصلح للمعاشرة والمحادثة كما كانوا يهدونى من قبل ، فهم فى ظنهم مخطئون

لقد أحسنوا فيما عملوا ، فانى أصبحت لا آنس بأحد فى العالم سوى نفسى ، ولا آنسُ بنفسى إلا لأنى أستطيع متى خلوتُ بها أن أسأَلَهَا عنك فتذكرنى بك وتلك الأيام السعيدة التى قضيتها معها فى بوجيفال ، وذِكرى تلك الايام هى العزاء الباقي لى عن جميع ما فقدت وما قاسيت من آلام الحياة

ما كنت أظنّ يا أرمان ان جسم الانسان يحتمل الآلام الى هذا الحد ، فلقد تمرّبنى ساعاتُ اعتقد فيها اني الألم الذى أكابده

انما هو ألم التزع وأنتى فى الساعة الأخيرة من ساعات حياتى ،
فاذا استفقتُ قلتُ فى نفسى هذا ألمُ للرض قد عجزت عنه ،
فكيف أقوى على ألم الموت

على ان نفسى تحدثنى أحياناً أنه إن قُدِّرَ لى أن أراه يجانى
ياأرمان فى يوم من أيام حياتى برئتُ من مرضى ، ومسحَ الله
مابى ، وعدتُ الى راحتى وسكونى ، فهل يقدرُ الله لى ذلك ،
لا أعلم ، فالاستقبل بيد الله ، فليقدرِ الله مايشاء ، وليفعل
مايريد



٢٤ يناير سنة ١٨٥١

لم أفارق سربرى منذ أيام طوال الا صباحَ هذا اليوم ،
جلستُ قليلاً بجانب نافذتى ، وأشرفت منها على الحياة ساعة ، فوقع
نظرى على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين فى طريقهم
لأهين منتبطين ، ولم أرى منهم من رفعَ نظره الى نوافذ غرفتى مرةً
واحدة كأنما يمرون بيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل
مأشدة وحشتى ، وما أضيق صدرى . وما أتملّ هذا الجدار
الذى يدور حولى على نفسى

لأطيق النظر الى سربرى ، لان نفسى تحدثنى أنه سيكون

عما قليل سَلَمَ قَبْرِي ، ولا الوقوفَ أمامَ صرَّاتي ، لأنَّها تحدَّثني عن
نفسٍ أسوأَ الأحاديثِ وأشأمها ، ولا الإشرافَ من نافذتي ،
لأنَّها تُذكِّرنِي بِحياتي الماضية السعيدة التي لا سبيلَ إليها اليوم ،
فأين أذهبُ وكيف أعيش ؟

لا آكلُ إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلا منظرًا متكررًا ،
ولا أسمعُ إلا صوتَ طيبي وخادمتي حينما يسألها عني صباحَ كل
يوم ومساءهُ فتجيبه ، حتى مللتُ وسئمتُ ، وأصبحتُ أسعرُ ان
نفسِي سَجِينَةً في صدري ، سِجْنَنَ جَسْمِي في غُرْفِي ، وربَّما مرَّتْ بي
ساعاتٌ يقفُ فيها ذهني عن التفكير ، وخاطري عن الحركة ،
وينقطعُ ما بيني وبين يومي وأمسي وغدي ، وكلُّ شيءٍ في الحياة
حتى نفسي

السعال يهدمُ أركانَ صدري هدمًا ، والنوم لا يُلِمُّ بعيني إلا
قليلاً ، والطبيب يعذبني بمشارطهِ وضِماداتهِ ^(١) عذاباً أليماً ، وكل
يوم أشعرُ ان نفسِي يزدادُ ضيقًا ، وبصري يزدادُ ظلمةً ، وان الحياة
تبعدُ عن نظري شيئًا فشيئًا ، حتى أكَادُ أحسبُها شبحًا من الأشباح
النائية ، فتقضي عذابِي ؟

(١) للشارط جمع ، شرط بالكسر وهو ما يشرط به الخلد لاستمرار الدم ، والعصادات
جمع عصادة وهي المصابة توضع على العصور المروح أو المكسور

٣٠ يناير سنة ١٨٥١

سمعت صباح اليوم ضوضاء كثيرة في قضاء المنزل فسألت
برودنس ما الخبر ، فذهبت وعادت إلى تبكي وتبكي ، أنهم
يحجزون أثاث المنزل ياسيدي ، فقلت دعهم يفعلوا ما يشاؤون ،
وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا عرقى متصليحين ،
ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعة عن رأسه احتراماً لصاحبة
المنزل ، أو يخفض صوته إشفافاً على المريضة المذبذبة ، فشوا
يسجلون كل ما وقع نظرم عليه ، وخفت أن يسجلوا دفتر
مذكراتي فأثرت إلى برودنس أن تخفي عنهم ففعلت
خمدت الله على ذلك ، ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد المائتين
حجرة وقال إنه ثمين سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه
الحاجز أن القانون يستثنى الأسرة وقرشها ، والتي في أذنه كلمة
أحسب أني سمعته يقول له فيها : إنك تستطيع أن تفعل ذلك
بعد موتها ، ثم انصرفوا بعد ما تركوا على باب بيتي حارساً لا يفارقه
ليله ونهاره ، فكتبت إلى «الدوق موهان» وهي أول مرة كتبت
إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبته إليه ، وأشكو له ما نالته يد
الأيام مني ، وأستحلفه بذكري ابنته الكريمة عليه أن يأتي

ليعودني ، ففعل فبكي عند مارآني ، ولا أدري هل بكائي أو ذكرك
عند رؤية مصر عى مصرع ابنته في أيامها الأخيرة فبكائها ؟ ثم
قضى بجانب فراشي ساعة مطرقاً صامتاً لا يتحدثني إلا قليلاً ؛
ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك في يد بروذنس
عند ذهابه بضع أوراق استبقت بعضها للنفقة واستمات بياقيها
على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر

لا أستطيع ان اكتب لك اليوم اكثر مما كتبت ، فان
طبيبي ما زال يلح على جسمى بالقصد حتى أوهاء واستنزف دمه ،
فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم



٢ فبراير سنة ١٨٥١

ان هذا اليوم أسعد أيامى وأهنؤها ، فقد وصل إلى من
أليك كتاب هذا هو

« سيدتى »

إلى أنوجع لك توجعاً شديداً ، فقد سلمت بالأمس من بعض
الوافدين إلى « نيس » من « باريس » أنك مريضة مرضاً شديداً
منذ شهرين ، وأنت لا تخرجين من منزلك إلا قليلاً ، فأسال الله
لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يحزبك خيراً بما فاسيت

من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي ، وأبشرك ان الله قد قبِلَ قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوسان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يوماً ، وأصبحت هاتئةً بحبها وعيشها كما أردت لها ، وإنها وان لم تكن تعلم شيئاً من أمر تلك القصة التي نعلمها فقد قلت لها : إن شخصاً من الناس ولم أسمه لها قد ضحى نفسه وسعادته في سبيل سعادتك وهنائك ، فلا تدعى الدعاء له في جميع صلواتك بحسن الجزاء عما فعل والله أعلم به ، فعي لا تزال تدعو لك صباحاً ومساءً أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها

أما الكتاب الذي أرسلته الى أرمان في أوائل الشهر الماضي فإنه لم يصل إليه إلا اليوم أو أمس ، لأنه مذهبك وسافر الى نيس لم يستطع البقاء فيها إلا بضعة أيام ، ثم رحل عنها الى الشرق حزيناً مهموماً من أجلك ، وكنت لأعرف الجهة التي يقيم فيها فلم أسنطع أن أرسله اليه حتى عرفنا منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتاباً أطلعه فيه على سر مسائلتك وأقول له : إني لا أرى ما عاياً يمنعني بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر الى باريس والبقاء فيها ماشاء ، وأحسب أنه يصل اليك في عهد قريب أرسلت اليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبلها مني ، وأن تنظري اليها بالعين التي تنظر بها الفتاة الى

هدية أبيها الذي يحبها ، فان فعلت أحسنت إلى ذلك إحساناً عظيماً

لى الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك دو قال ،

فأقرأته حتى شعرتُ بهزة من السرور في قلبي لم أشعر بمثلاً منذ فارقتك حتى اليوم ، فقد علمتُ أن سوسان قد تزوجت ، وذلك ما كنتُ أرجو لها ، وأنت لا تزال تحبني ، وقد كنتُ أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتبك ، وأني سأراك عما قريب ، وتلك كل آمالي في الحياة

أما الهدية التي أرسلها إلى أبوك فقد نظرتُ إليها بالعين التي أرادها فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إلى



٣٠ فبراير سنة ١٨٥١

استطعت أن أنام ليلة الأمس أكثر من كل ليلة ، لأن السرور الذي تركه كتابُ أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طيبي : إنك اليوم خيرٌ منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرج في مركبتك إلى بعض المتنزهات ساعة ثم عودي ، فخرجتُ إلى غابات

« الشانزليه ، فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها
صاحكين متهللين ، مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيتها كما تعرفها
امرأة محرومة منها مثل ، فلم أحسدهم على ائمتهم التي آتاهم الله ،
بل دعوت لهم ببقائها ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزناً
شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارفى الماضين قد مروا على
مقربة منى ولم يعرفونى ، ورأيت واحداً منهم قد نظر الى وقد
مرّ بحجاب مركبى نظراً للتخيل للتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه
عني ومضى لسبيله ، وقد استقرّ في نفسه أنه يرى امرأة غير
المرأة التي كان يتوهمها ، فعلمت انى قد تغيرت تغيراً عظيماً ، وان
مرأتى ما كانت تكذبني حينما كانت تحدثني عن تحولى واصفرارى ،
واستحالة صورتى ، بل صدقتني كما صدقني الناس

ثم رأيت الشمس قد عادت الى حجابها فعدت الى منزلى
وقد زال من نفسي ذلك الخاطر الذى أحزنني ، وحلّ محله خاطر
آخر خير منه ، وهو اني سأراك عما قليل يا رمان ، وسينقضى
بلقائك عهد يؤسى وشفائى

٧ فبراير سنة ١٨٥١

ما أحسبُ أنكَ مُذْرِكِي يارمان ، فقد بلغتْني العلةُ منهاها ،
وأصبحتُ لأجد الراحة في قيام ولا قعود . ولا نوم ولا يقظة ،
واتشربت الآلام والالوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي ، وكأنَّ
حجرًا من الأحجار العاتية ممتدًّا على صدرى يمنعني التنفسَ
والحركة ، وقد عجزتُ اليوم عن أن أتقل من سريري الى مكتبي ،
فأمرتُ برودنس أن تأتيني بمحبرتي ودفتري حيث أنا فجاءت
بهما إليّ ، فأنا الآن أكتب لك وأنا في فراشي ، فتى أراك يارمان
لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟



١٠ فبراير سنة ١٨٥١

أمل في الحياة ضعيفٌ جدًّا ، هاهو الموت يدنو مني رويدًا
رويدًا ، لم تأت إليّ حتى الساعة يارمان ، وأظن اني سأموت قبل
أن أراك ، ان الموت مخيفٌ جدًّا يملأ قلبي رعبًا وهولًا ، لا أعلم
كيف أستطيع أن أسكن وحدي تلك الحفرة الموحشة المظلمة
التي لا أنيس لى فيها ولا سمير ، لم أتمتع بالحياة طويلاً وكانت
كلُّ سعادتي فيها آمالًا وأحلامًا ، وهانذا أموت قبل أن أرى شيئًا
من آمالي وأحلامي ، ما أحلى الحياة وما أضرَّ فراقها ، لم أنل منها

نائلاً ولكنى لأحِبُّ أن أتركها، لقد سَعِدَ الذين يُعْمَرُونَ في الحياة طويلاً ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذريةً صالحةً أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا، أما أنا فأتى سَأَمُوتُ في ربيعِ حياتي، وسيموت ذكرى في الساعة التي أَمُوتُ فيها وكأني لم أعش في الحياة يوماً واحداً، وأُسفاه على ما فرطت في حياتي الماضية، إني أدفع اليوم ثمنَ ذنوبي وآثمي أضاعاً مضاعفةً، لقد كنتُ أستطيع أن أقتع بالمضغة والجرعة ولا أُمَدُّ عيني إلى ما تقصر عنه يدي فلم أفعل، فهأنذا لا أَسِيغُ المضغة ولا الجرعة، ولا أجد السبيلَ إلى العيش على أى صورةٍ من صور الحياة، أهكذا أخرجُ من الدنيا غريبةً عنها كما دخلتُ فيها لا بمحض موتي قريب، ولا يبكي عليَّ صديق؟ أهكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحيتها فيها وأصبحتُ على مرحلةٍ واحدةٍ من أحلامي وآمالي، آه لو يمهني الموت قليلاً فربما كنتُ على مقربة مني يا ارمان فأنظرَ إليك نظرةً واحدةً ثم أَمُوتُ، لأأمل لي في ذلك، فقد رأيت طيبي صباح اليوم يلتقي في أذن خادمتي وهو خارجٌ من عندي كلمةً فسألْتُها عنها فدارت حولها ولم تقلها، وما أحسبُها إلا تلك الكلمة الهائلة، لا أكاد أبصر شيئاً مما أمامي حتى يياض الصحيفة التي في يدي، كنتُ قبل اليوم أنفثُ الدمَّ

وحده ، والآ ن أنفُ أفلاذ رثى مصبوغةً بالدم ، من لى بكأس
من السم أشربها جرعة واحدة فاستريح من هذا العذاب الذى
يساورنى ، ولكن أى فائدة لى فى ذلك وما هو الموت يمشى الى بأسرع
مما أمشى إليه ، رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت وحدك العالم بمقدار
ألمى وعذابى . فارحمى وهون على أمرى ، وامنحني إحدى الراحتين
لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كان هذه
الكلمات آخر ما تخطه يدى

١٤ فبراير سنة ١٨٥١

لا تحزن على كثير بعد موتى يا ارمان ، فحسبى منك أن
تذكرنى ولا تنساني ، وأبشرك أن الله قد استجاب دعائى الذى
دعوتُهُ إياه ، فألقى فى نفسى منذ الأمس برّدة الراحة واليقين ، وبما
من قلبى جميع مخاوفه ووساوسه ، فعلت أنه قد رضى عني ، وغفر
لى ذنبى ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف ما بعده ، ولا
أجزع من الألم ، ولا أبكى أسفاً على الحياة ، فلا يحزنك أمرى
حين تعلمه ، وعش سعيداً بين قومك وأهلك ، وأكرم أباك فهو
خير الآباء ، وأحبب أختك فهي أطهر الفتيات ، وأوصيك خيراً
برودنس فهي فتاة طيبة القلب عظيمة الإخلاص لى ولك
وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدى

ان الله قد خلق يا ارمان لكل روح من الأرواح روحاً
أخرى تماثلها وتمازجها ، وتسعد بلقائها ، وتشتق بفرانها ، ولكنه
قد رأى أن تفضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى ، فذلك هو
شفاء الدنيا ، وأن تهتدى إليها في الحياة الثانية ، وتلك هي
سعادة الآخرة

فان فأتني سعادتي بك في الارض ، فسأنتظرها في علياء السماء
(وهنا كتبت بعض كلمات مضطربة قد محاذمها أكثرها
فلم يبق منها واضعاً بعض الوضوح إلا كلمة «الوداع»)



بقية المذكرات

بقلم الخادمة برودنس

١٣ فبراير

لم تستطع مرغريت ياسيدى أن تكذب لك أكثر مما
كتبت ، لأن الطيب منها من الحركة ، ولو أرادتها لعجزت عنها
أثدكر ياسيدى ذلك الجسم الغض الناعم الذى كان يمج
بالأمس بالنور موجاً ويشرق في بشرته إشراف الخمر في كأسها ؟
لقد أصبح اليوم عظماً مجلداً وهيكلاً مائلاً لا يساوي ثمن النظرة اليه

وارحمته لها لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشمورها ،
وليتهما مانا معها ، فإنه لا يمدبها شيء مثل خواطرها وأفكارها
لا يدخل من باب غرفتها داخل حتى ترفع نظرها إليه تظن
أنك قد جثتها ، فإذا دنا منها ورأته أطبقت جفניה على دموع
تتحرر من بينهما بالرغم منها

إنها لا تتكلم كثيراً ، فإذا تكلمت كان أول حديثها « ألم يأت
أرمان ؟ » فإذا أجبتها أن لا سألت عن أمر آخر تتلعق به ، أو
حادت الى صمتها الحزن الطويل

لقد رابها اليوم أن طيبها لم يأتها ، فلما أردت أن أعتذر لها
عنه لم تصدقني ، وقالت « الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك
بالأمس » فسكت ولم أعرف ماذا أقول لها



١٤ فبراير

أصبح اليوم صوتها ضعيفاً جداً لا أكاد أسمعها ، واظلم بصرها
فهي تنظر الى ولا تراني ، وقد أشارت الى في الصباح مراراً أن
أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروّج عن نفسها ،
ونوافذ الغرفة مفتوحة يجرى منها الهواء متدفقاً ولكنه لا يصل
الى صدرها

آه لو أستطيع ياسيدي أن أبيع حياتي لأشترى لها بها
بضعة أنفاس تردد في صدرها، أو بعض سِنَات من النوم تأوي
إلى جفنها ؛ فإنَّ تنفّسها يؤلّني ويمدّجني عذاباً شديداً ، وقد
مرّت بها ثلاث ليالٍ لم تم فيها لحظة واحدة



١٥ فبراير

بعد صمتٍ طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فتحت عينيها
ونادتني بصوتها الخافت الضعيف ، فدوتُ منها فقالت لي « أريد
الكاهن فأُتِنِي بِهِ » ، فعلمتُ أنها قد أصبحتُ عليّ يقين من
أمرها ، فقابلتُ عبراني حتى خرجتُ عنها فبكيتُ ماشاء الله
أن أفعل ، ثم ذهبتُ إلى الكاهن فتردد عند ما عرف المرأة
التي يريد الذهاب إليها ، فصرّعتُ إليه وقلت له : ان رحمته الله
ياسيدي لا يستحقها مثل الآثمين المذنبين ، فأذن بعد لأي
وجاء معي فخلاً بها ساعة ثم خرج ، فسألته أيرحمها الله ياسيدي ؟
قال « إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين »
فحمدت الله على ذلك

ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى
عضواً من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان من صدرها الذي يترجّع
بين الصعود والهبوط



١٥ فبراير - ساعة الغروب

إن مرغريت تتمتع بكثيراً ياسيدى ، وأحسب أنها تعالج
سكرات الموت
لم يقاسِ إنسان في حياته مثلها تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها
إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات مؤلمة تذوب لها
حيات القلوب

ولقد اشتد بها الألم الساعة فبيت من مكانها صارخة ،
وانصببت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها
وأضجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منها دمعتان
كبيرتان ، وكأنما أحست بي فاعتقتني وضممتني إليها صمّاً شديداً ،
ثم مالبت أن تراخت يدها وعادت الى نزعها وعلاجها



١٥ فبراير - نصف الليل

قضى الأمر ومات مرغريت ، ولم يبقَ منها على سريرها إلا
جثتها التي ستذهب غداً الى قبرها ، ناك غايئها وعاية كل حي
فصبراً على قضاء الله وبلائه

لقد هتفت باسمك كثيراً ياسيدى في ساعاتها الأخيرة ،

وكان آخر عهدنا بالحياة أن نظرت إلى نظرة طويلة مملوءة
حزناً ودموعاً، ثم حرّكت أصبعها حركة خفيفة وأشارت بها إلى
دفتر مذكراتها الذي كان ملقى بجانبها وقالت « ارمان » كأنما
توصيني أن أبلغه اليك ثم أسلمت روحها

عزيزي عليّ ياسيدي ما لاقيت من العذاب قبل موتك ،
وعزيزي عليّ أن تموتى ولا تجدى بجانبك من يُغضّ عينيك
ويُلقي ردائك عليك سوى ، وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة
التي ما حلت في حياتها شرّاً لمحسن ولا مسيئ ، وذلك الصدر
الرحب الذي كان يسع الدنيا بهموها وارزائها فلا يضيق بها ،
وذلك القاب النقي الأبيض الذي ما أضمر في حياته غير الخير
والإحسان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان



بكت برودنس بجانب جثة سيدتها ما بكت. ثم أثارَتْ حولها
الشموعَ وبعثت إلى الكاهن جناء وجنا عند رأسها يقرأ في انجيله ،
ومشت هي إلى المكتب فجلست بجانبه تكتب آخر مذكراتها
حتى فرغت منها ، ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شبحاً
مائلاً على باب الغرفة ، فشت إليه فإذا هي ترى ارمان في
لباس السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميثة نظرة غريبة

هائلة كتلك النظرة التي تسبقُ صرعات الجنون ، ثم استردها
والقاهها عليها وسألها : من هذا المُسجى على هذا السرير ؟ فبكت
برودنسُ وقالت : مرغريثُ ياسيدى ، فسقطت حقييته من
يده ، وجد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحركُ

ثم اندفع الى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقي بنفسه عليه
فأدركتهُ برودنسُ ووقف الكاهن في وجهه وقال له : احترم الموتِ
أيها الفتى ، فاختنقتُ عبراتهُ في صدره وارتعد ارتعاداً شديداً
وسقط مغشياً عليه ، فلم يستفِقْ إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم
قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يحامل على نفسه حتى دنا من السرير
وقال : رحمة بي أيها الناسُ ، فقد فاتني ان اودعها حيةً ، فائذنوا لى
ان اودعها ميتةً ، فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغطاء
عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال « الوداع يا أعز الناس عندي ،
الوداع يا خير فتاة في الارض ، وأشرف روح في السماء » ثم أعاد
الغطاء على وجهها ، وتراجع عنها ، وأذنهم بحملها

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب ، ولم يمش وراء النعش غيره
وغير الخادمة برودنسُ والدوق موهان يتوكأ على عصاه ويقول
في نديه وبكائه « هأنذا أرى ابنتى تموت ألمي مرةً أخرى ولا
أزال على قيد الحياة » وبعضُ نسوة بالسات من ضحايا تلك الاقدار

وما تقضى النهار حتى اتقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت
رهينة قبرها ، وأصبح ارمان طريق فراشه يقرأ في مذكراتها
ويبكي بكاء اليتيم الثاقل

ثم اشتد به المرض بعد ذلك اشتداداً عظيماً فلم تر برودنس
بداً من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله فحضر وحضرت
معه ابنته وزوجها ولبثوا بجانبه شهراً يطلونه ويستشفون له
حتى أبلى ونجا من خطره

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعوها قبل سفرهم فبكوا
حولها بكاء شديداً ، وكان أشدم بكاء عليها سوسان وان كانت
لا تعلم انها نبكى على المرأة التي ضحت نفسها في سبيلها
ثم تقدم المسيو دوفال الى ولده وقال له « أنفرتي ذنبي
اليك يا ارمان ؟ » قال نعم بأبته ، لانها غفرت لك ذنبك اليها ،
ثم انصرفوا



مرت الأيام ، وانقضت الأعوام ، ومات المسيو دوفال ،
وسعد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت بين جنبيه لوعة وثابة
لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ،
ومحادثة برودنس عنها ، وزيارة قبرها من حين إلى حين



فهرس العبراف

صفحة

٣	القيم
٢١	الشهداء
٢٥	الحجاب
٦٥	الذكرى
٨٥	الهاوية
١٥١	الجزاء
١٢١	المقاب
١٤٥	الضحية

